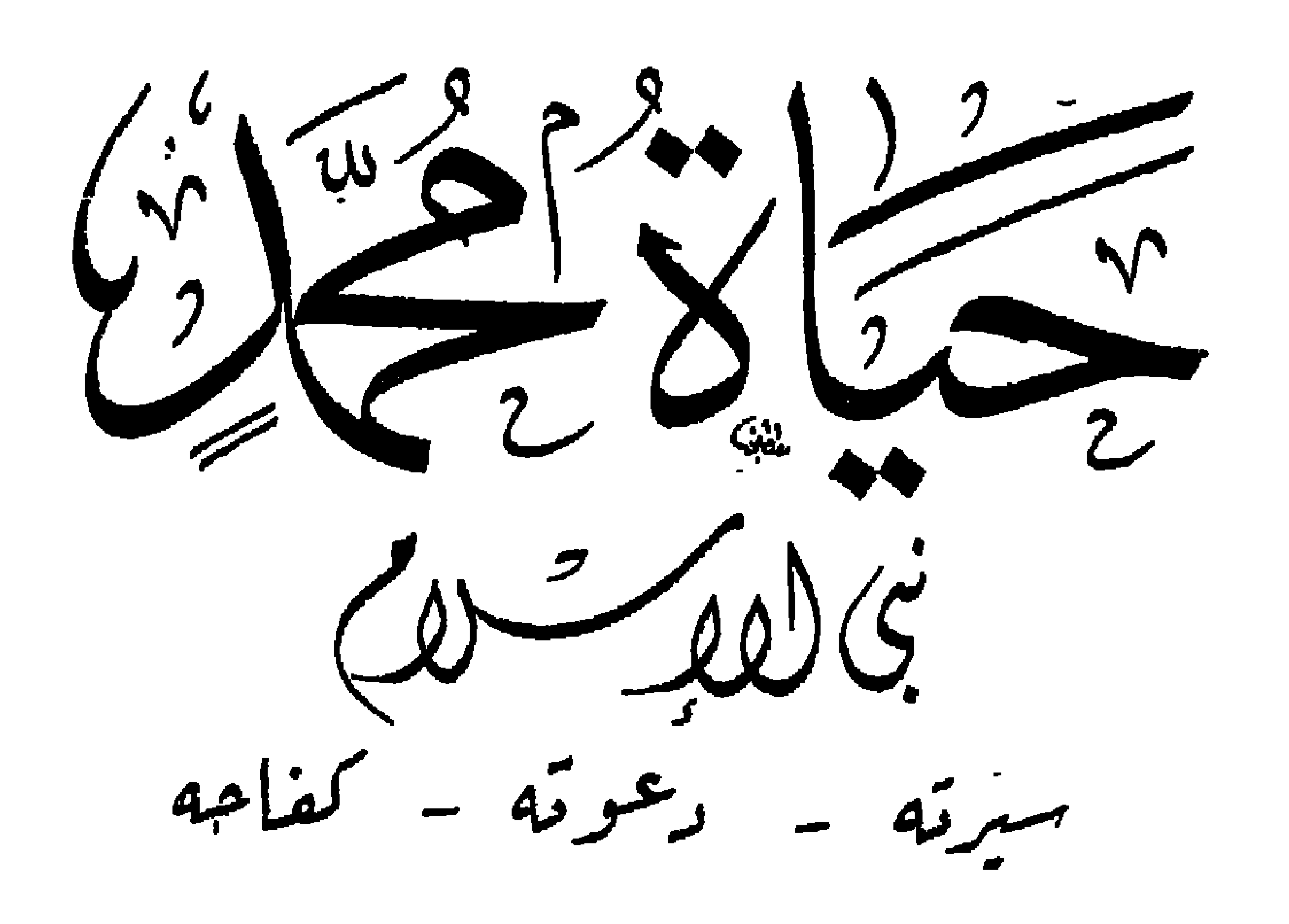




دكتور عز الدين فراج
أستاذ بجامعة القاهرة



دكتور عز الدين فراج

أستاذ بجامعة القاهرة

دار مصر للطباعة

٣٧ شارع كامل صدقي

العرب قبل الإسلام

كان العربُ قبل دعوةِ سيِّدِنا محمدٍ إلى الإسلامِ في فسادٍ وفوضى وعراكٍ ووحشيّةٍ ، وكانت قبائلُهم تدخُل في حُروبٍ مع القبائلِ المجاورةِ ، من غيرِ انقطاع ، وبلا سببٍ معقول .

وكانت الأصنامُ عند العرب قبل الإسلام معبودةً كلَّ العبادة ، ومحبوبة كلَّ الحب ، ومُحترَمةً كلَّ الاحترام ، ومُقدَّسةً كل التَّقديس .

كانوا يُقدِّمون إليها القرابين ، ويَحرِقون حولَها البَخور ، ويركَعون لها ويَسجُدون ، ويُصلُّون ، ويَنحَنُون أمامَها في خُشوعٍ .

كانت الأصنامُ خَرساءَ لا تَنطِق ، وصَمّاءَ لا تَسمَع ، ومع ذلك كانت تُوحِي إليهم بكلِّ شَر ، وكانت تُفسِدُ عليهم كلَّ شيء في الحياة .

وكانت من القوةِ بحيثُ لا يستطيعُ أحدٌ أن يَذكُرَها بِسُوء ، وكانت من القُوةِ لدَيْهم ، بحيثُ يتصَوّرون أن تزول الجبالُ ولا تَزول ، وهكذا فعلت الأصْنامُ بعقول العربِ قبلَ الإسلامِ .

وكان للأصْنامِ كهانٌ يتكلّمُون عنها ويأمُرُون بِلسانِها ، ويُبلِّغُون عَبيدَها ما يُريدُون .

وكانوا يُؤمِنون بالأرواحِ الشِّرِّيرةِ ويَنسُبون إليها ما يُصيبُهم من مَرضٍ أو مصيبةٍ أو بَلاء .

كان الجهلُ عِندهم مُنتشِرا ، وكانوا يَعتقِدون أن الرّوحَ عندما تَترك

الجسم بَعد الموت ، تأخُذُ شَكلَ طائرٍ يُشبهُ البُوم ، لا يَترُكُ قبرَ الميِّت ، يُخبِره بأخبارِ أبنائِه وأهله .

وإذا مات الواحِدُ منهم مقتولا كان هــذا الطائر يَتردَّدُ عليه قائلا : اسْقونى . . . اسقونى . ويَظلُّ يُردِّد هَــذهِ الـكلمةَ حتى يَثأرَ له أهلُه من قاتِلِه بقَتْله .

وكانت الرَّذيلةُ منتشرةً ، والشرُّ محبُوبا ، والفحشاء مُباحَة . وكان شُربُ الخمرِ والرقصُ ولَعِبُ القِمار من عادَاتِهم المعروفةِ التى تُلازِمُهم ليلاً ونَهارا .

وكانت المرأةُ عند العربِ قبل الإسلام ، سلعةً تُباعُ وتُشترَى ، ولا يَهمُّ الرجلَ ما يصيبُ الأسرةَ من ضعفٍ وفقرٍ وبؤسٍ ومرض ، ولا يهمه ما يُصيبُ الأبناء من بَلاء . وكانت المرأةُ تُورَثُ كما تُورَثُ الحيواناتُ وأثاثُ البيت ، وكانت لا تَرِثُ شيئا من أموالِ الأهلِ والأبناء .

وكان القوىُّ يَتحكمُ فى الضَّعيف ، والغَنىُّ يُسَيطِرُ على الفقير ، والسَّيدُ يَقسُو على العَبيد .

وكَانَ العَرَبُ قبلَ الإسلَامِ يَقتُلونَ البَنَاتِ خَوفًا مِنَ الفَقرِ والعَارِ ، وَيَدفِنُونَهُن فِى التُّرَابِ وَهُنَّ عَلَى قَيدِ الحَيَاةِ ، مِن غَيرِ ذَنبٍ ارتَـكَبْنَه ، فَحَرَّمَ الإِسلَامُ ارتِـكَابَ هذهِ الجَرِيمَةِ القَبِيحَةِ فِى قَولِهِ تَعَالَى : « وَإِذَا المَوْءودَةُ[1] سُئِلَتْ . بِأَىِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ » .

وكان الرِّقُّ مُنتشِرًا فى جميعِ أنحاء الدنيا ، لم تَستطِع مَدنيةُ الرُّومان ، ولا فلسفةُ اليُونَان ، ولا حِكمَةُ الفرس أن تُلغِىَ هذا النظامَ الظَّالِم .

---

(١) الطفلة التى كان يدفنها والدها فى التراب وهى حية .

كان الرقيقُ ذليلا — وهو إنسان — لا يأكلُ مع سيِّدِه ، ولا يستطيعُ أن يمشيَ بجانبِه أو يجلسَ بجواره .

كان الرقيق مُحتقَرا لا قيمة له عند سيِّدِه ، إن شتم حُرا قُطِع لسانُه ، أو أُدخِلَ فى فِيه خنجرٌ مُحمى ، وإن سرق سيِّدَه أحرقه ، وكثيرا ما كان يجلِدُه أو يكويه بالنار ، أو يعلِّقه بالطاحونة ليُديرَها لأقلِّ الأخطاء والأسباب .

وكان لا يستطيعُ أن يتزوَّجَ من الأحرار ، وكانت الحرةُ التى تتزوجُ عبدا تُستعبَدُ ، وكذلك الحرُّ إذا تزوج عبدةً يعامَلُ ولدُه منها معاملةَ العبيد .

وكانت شهادةُ العبد لا تُسمَعُ ، وكان لا يُؤخذ رأيُه فى وضعِ نظامٍ أو قانون ، ولا حقَّ له أن يتكلمَ فى أىِّ موضوعٍ يهمُّ الأحرار .

وكان اليونانيون والرومانيون فيما مضى يعدُّون الامَ المغلوبةَ عبيدا .

وكان بعضُ شعوبِ القوقازِ قديما يتخطَّفون النساء والأطفالَ لبيعِهم فى سوقِ الرَّقيق .

***

وفى عامِ ٥٧٠ ميلادية حاول « أبرهةُ » عاملُ النَّجاشى ملكِ الحبشةِ أن يَصرِفَ العربَ عن الكعبةِ إلى ما أسماه وقتئذٍ « بيتَ اليَمَنِ » ليحُجُّوا إليه بدلا من الكَعْبة ، ولما فشِلت مُحاولاتُه قرَّر هدمَ الكعبةِ أول بيت وُضِعَ للناسِ ، والذى رفع قواعِدَه إبرهيمُ وإسماعيلُ ؛ ليكونَ مثابةً للناسِ وأمْنا .
وزحف « أبرهةُ » بجيشِه وفيله إلى مكةَ ، ظنًّا منه أن تحطيمَ الكعبةِ سهلٌ ، وتوجه « عبْد المُطلب » على رأس وفدٍ من قُريش إلى « أبْرهة » ليُغريه

بالمال ، ولكنه رَفَضَ ، وذهب إلى الكَعْبةِ بِرِجَالِهِ وأسلِحَتِهِ وفِيلِهِ الكَبِير .

قَالَ عَبْدُ المُطَّلِبِ زَعِيمُ مَكَّةَ لقومِهِ : لَا تَخافُوا ، إنَّ الكَعْبَةَ بَيْتُ الله والله يَحْمِيها .

نامَ الأعداء يَنْتَظِرُونَ الصَّبَاحَ ، لِيَهْدِمُوا الكَعْبَة .

قبلَ أن يأتِيَ الصَّبَاحُ ، هَزَمَهم الله .

أرْسَلَ اللهُ عليهمُ البَلَاءَ مِن السَّماء ، فَهَلَكُوا جميعاً ، ولَمْ يَهْدِمُوا الكعبة .

سَمِعَ عَبْدُ المُطَّلِب بما جَرَى لِلأعْداء .

وَأخَذَ يَقُولُ وَالنَّاسُ يَقُولُونَ مَعَه :

سُبْحَانَ اللهِ ، وَالحَمْدُ لله ، وَاللهُ أكْبَر .

ووصَفَ الله تَعالى ما لَحِقَ بجيش « أبْرَهَة » فجاء في كِتَابه العزيز .

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ[1] * تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِن سِجِّيلٍ[2] * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ[3] مَأْكُولٍ[4] *

وفي نَفْسِ العام الذي حَمَى فيه اللهُ كَعْبَتَه ، وُلِد محمدٌ صلى الله عليه وسلم ليكونَ نورًا وهُدًى للعرب وهدايةً للنَّاسِ أجْمعين .

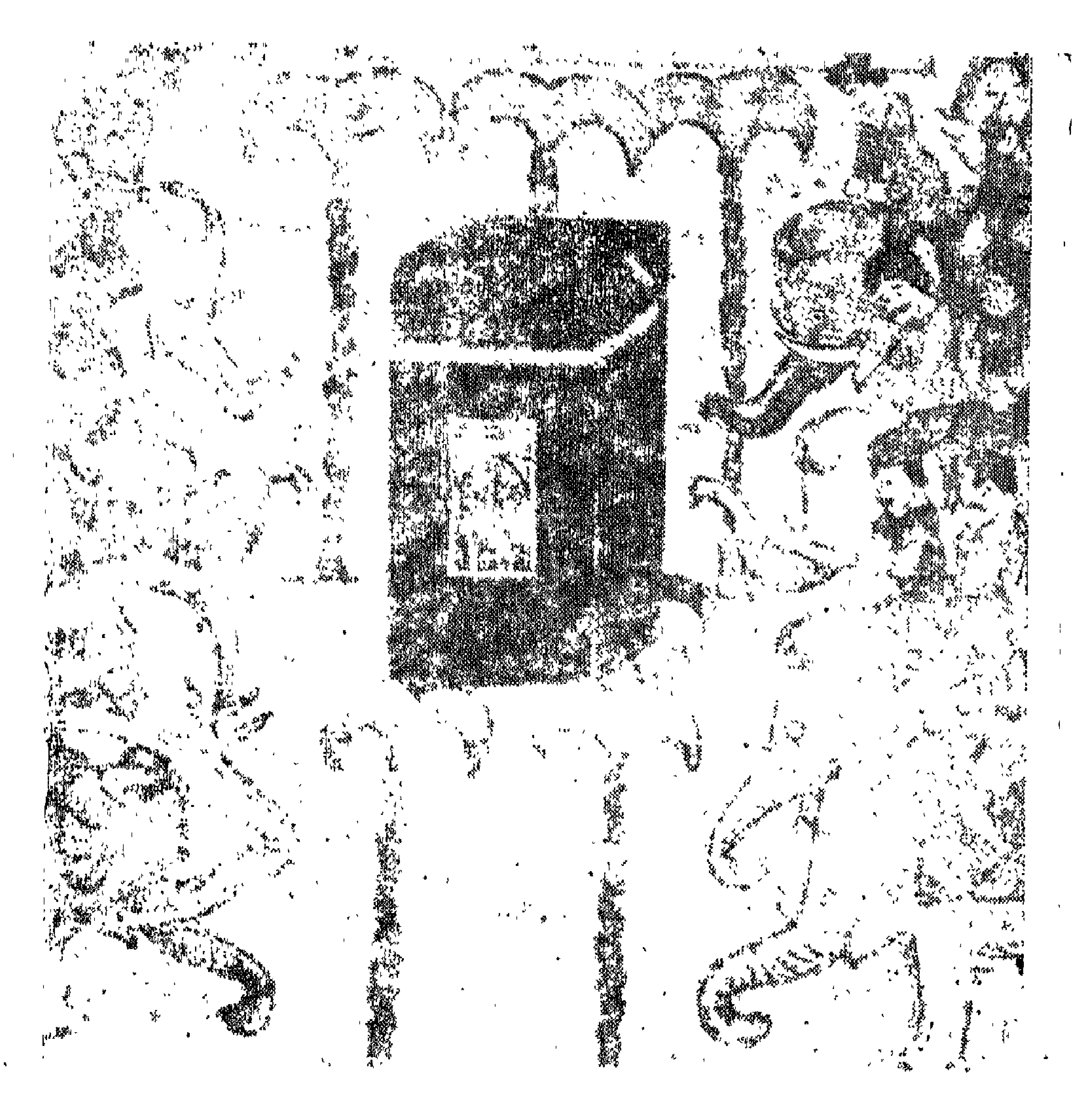
---

(١) أبابيل : جماعات كثيرة يتبع بعضها بعضا .

(٢) سجيل : الطين المتحجر .

(٣) عصف : تبن — ورق الزرع .

(٤) أكله الدود والسوس ، أو أكلت الدواب بعضه ، وتناثر من بين أسنانها بعضه .



أراد « أبرهة » أن يحطم الكعبة بفيله ، فهلك هو ورجاله

مَولد النّبيّ

وُلِد النبيُّ صلّى اللهُ عليه وسلم يومَ الاثنين لاثنتي عشرةَ ليلةً من شهرِ ربيعِ الأولِ من عامِ الفيل سنة ٥٧٠ ميلادية .

وَلَدَتْهُ أُمُّهُ « آمنةُ بنتُ وَهب » يتيمَ الأبِ ، إذْ مات أبوه « عبدُ اللهِ ابنُ عبدِ المُطَّلب » وهو جنينٌ فى بطنِ أمِّه ، وكان ذلك فى أثناء رحلةٍ تجاريةٍ ، قام بها الأبُ الشابُّ إلى غزَّة فى بلادِ الشام .

ولما وَلَدتهُ أُمُّه ، أرسَلَت إلى جَدِّه « عَبدِ المُطَّلِب » تقولُ له : لقد وُلِد له غُلامٌ ، فجاء ليَراه ، ويَسْعَدَ بِطَلْعَتِه ، ثم دَخَل به الكعبةَ ، وشَكَرَ اللهَ لما أعطاه ، ثم رجع به إلى أُمِّه ليُعيدَه إليها .

وفَرِح به جَدُّه « عَبدُ المُطَّلِب » فَرحا عظيما ، وسَمّاهُ « مُحمّدا » وكان هذا الاسمُ نادرا بين العرب ، إذْ لم تعرف العربُ مَن تَسمَّى بهذا الاسم قبلَ الرسولِ إلا ثلاثة ، تَمنّى آباؤهم حين سَمّوا بقُربِ بَعثِ نبيٍّ فى الحجازِ اسمُه محمدٌ أن يكونَ لهم خاصّة .

وكان لا بدَّ أن يُعهَدَ بِكُلِّ طِفلٍ من قريش إلى إحدى مُرضِعاتِ البادِيَة ، وقد كانت هذه العادةُ معمولاً بها من بعيدٍ عندهمْ .

وجاءتْ مُرضِعاتُ بنى سَعدٍ من البادية إلى مكة ، وجاءت معهم حَليمةُ السَّعديةُ ، وأعرَضَ أغلبُ المُرضِعاتِ عن محمدٍ اليتيمِ الفقير ، مقبلاتٍ على أطفالِ الأغنياء من قُريش ، واضطرّت « حليمةُ السَّعديةُ » فى آخر الأمر إلى أخذِ

« محمدٍ » خَشْيَةَ أن تعودَ إلى البادية بلا طفلٍ ، فتَشَمَّتَ بها باقى المُرضعاتِ .

وأقام محمدٌ فى الباديةِ وفى بنى سعد بن بكرٍ أربعَ سنوات . وكان فى خِلاَلِها موضعَ رعايةِ « حَليمة » التى أرضعته ، وابنتِها الشَّيماء التى حَضَنَتْه ، وأبنائها الذين رَافقوه ولَعِبوا معه . وقد كَسَبَ محمد صلى الله عليه وسلم الكثيرَ من البَادِيَة ، نذكُرُ من ذلك ملَكةَ النطقِ واللغة ، واشتدادَ العودِ والبِنْيَة ، وصفَاء الذِّهْن ، وحَسْبنا أن نكررَ ما كان يُرَدِّدُه عليه الصلاةُ والسلامُ حينَ يقول :

« أنا أعربُكم : أنا قُرَشِيٌّ ، واسْتُرضِعْتُ فى بَنِى سَعد بنِ بَكر » .

وعاد « محمدٌ » إلى مَكةَ وهو فَتًى فى الخامسةِ من عُمرِه ، لِيكتمِلَ يُتمُه ويَشتدَّ فقرُه ، إذ فَقَدَ أمَّه ، وفَقَدَ بعدها جَدَّه وولِىّ أمرِه « عَبدَ المُطَّلِب » .

أمَّا وَفاةُ أمِّه فوقَعت فى أثناءِ الرحلةِ التى أخَذَت فيها « محمداً » صلّى اللهُ عليه وسلّم ، لزيارةِ أخوالِه من « بنى النَّجارِ » فى يثربَ (المدينة المنورة) وبالمكانِ الذى تُوُفِّىَ به أبوه . وقد ترَكت وَفاةُ أمِّه أثرا عَميقاً مُؤلما فى قلبِ « مُحمدٍ » ، يَظْهر فى كَثرةِ حَديثِهِ عنها إلى صَحابَتِه فيما بعدُ .

ومثلُ هذا الأثرِ ترَكتْه أيضاً وَفاةُ جَدِّه « عَبدِ المُطَّلِب » فى نفسِه ، فكان دائمَ البُكاء ، وهو يُشَيِّعُ جَدَّهُ إلى قبرِه ، وكان وقتئذٍ قد بَلَغ الثامنة .

وجَدُّه « عبدُ المطلبِ » هو ابنُ هاشمٍ بنِ عَبدِ مَنافٍ بن قُصَىٍّ بنِ كِلاب . وقُصَىٌّ هو الزَّعيمُ العَربىُّ الذى وَضَع أمجادَ قُريش ، وَجمعَ شملَها ، ووحَّد كَلِمتَها ، فحَظِيَتْ بِالهَيْبةِ وشَرفِ المَنزلَةِ بين العرب جميعِهم .

وجَاء « عَبدُ المطلب » من بعدِه ، فاستطاع بقُوةِ شخصيتِه ، أن يتَولّى أبرزَ المَناصبِ فى مكةَ وهى :

« السِّدانة » وهى الإشرافُ على الكعبةِ ، و « السِّقايةُ » وهى توفيرُ الماءِ للحجّاجِ ، « والرِّفادة » وهى توفيرُ الطّعامِ ، والقِيادةُ وهى إمارةُ القوم فى القتالِ والتجارةِ ، ولهذا قال النبيُّ صلّى الله عليه وسلّمَ .

« إن اللهَ اصْطَفَى من وَلدِ إبراهيم إسماعيل ، واصْطَفَى من إسماعيلَ كِنانةَ ، واصْطَفَى من كِنانة قُرَيْشاً ، واصْطَفَى من قُريشٍ بَنِى هاشمٍ ، وَاصْطفانِى من بَنِى هَاشِم ، فأنا خِيارٌ من خِيارٍ من خِيارٍ » أى من خِيارِ الناس، وأعلاهم مكانةً ، وأسماهم مَنزِلةً .

ومات جَدُّه عبد المطلب فتولّى عَمُّه أبُو طالبٍ أمْره وقال له :

لاَ تَحْزَنْ يا ابنَ أخِي ، أنا لكَ بَدلَ أبِيكَ وَأُمِّكَ وَجَدِّكَ . لن تَحْزَنَ يَا مُحمدُ مَا دُمْتُ حَيًّا !

وَعَاشَ مُحمدٌ مَعَ عَمِّهِ أبِى طَالِب ، يُحِبُّ عَمَّه ، ويُحِبُّه عمُّهُ ، حَتَّى كَبِرَ وَصَار شَاباً ، وفى شَبَابِه تعلّمَ مُحمدٌ أنْ يَرْعَى الغَنَمَ .

وَعَرفَ النّاسُ جميعاً فِى مَكّةَ أنَّ محمداً أحْسَنُ رَاعِى غَنَم . قال لأصْحابِه :

« ما بعثَ اللهُ نبِيًّا إلاَّ رَعَى الغَنَمَ » .

فقَالُوا لَهُ : وأنْتَ يا رسُول اللهِ ؟

قال : « وأنا رَعَيْتُها لأهْلِ مكّةَ » .

ونشأ محمدٌ صَادِقاً لاَ يَكْذِبُ ، وَكَانَ أمِيناً لاَ يغشُّ .

وَكَانَ عطُوفاً لاَ يُخَاصِمُ أحَداً ، وَكَانَ لَطِيفاً لا يَكْرَهُهُ أحَدٌ .

اشتَهرَ محمدٌ بينَ الناسِ جميعاً بأنّه صَادِقٌ ، وَأمِينٌ ، ولَطِيفٌ ، وَعَطُوفٌ .

أحَبَّهُ النَّاسُ جَمِيعاً .

وَوَثِقَ به النَّاسُ جميعاً .

مُحَمَّدٌ الأَمِينُ

فِي يَوْمٍ مِنَ الأَيَّامِ ، أَرَادَ أَهْلُ مَكَّةَ أَنْ يُجَدِّدُوا بِنَاءَ الكَعْبَةِ .
وَاشْتَرَكُوا جَمِيعًا فِي تَجْدِيدِ بِنَائِهَا .

ثُمَّ أَرَادُوا أَنْ يَضَعُوا الحَجَرَ الأَسْوَدَ فِي مَوْضِعِهِ مِنَ الكَعْبَةِ، فَاخْتَلَفُوا :
مَنْ الَّذِي يَضَعُهُ ؟ لِأَنَّ الحَجَرَ الأَسْوَدَ ، أَشْرَفُ قِطْعَةٍ فِي الكَعْبَةِ .

وَكَانَ لِلْعَرَبِ فِي مَكَّةَ زُعَمَاءُ أَرْبَعَةٌ ، يُؤْتَمَرُ بِأَمْرِهِمْ .

قَالَ كُلُّ زَعِيمٍ مِنْهُمْ :
أَنَا الَّذِي أَحْمِلُ الحَجَرَ الشَّرِيفَ ، وَأَضَعُهُ فِي مَوْضِعِهِ .
وَتَخَاصَمَ الزُّعَمَاءُ الأَرْبَعَةُ ، وَكَادَتِ الحَرْبُ تَقَعُ بَيْنَهُمْ .

قَالَ شَيْخٌ عَاقِلٌ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ :
لَا تَخْتَلِفُوا ، وَلْيَحْكُمْ بَيْنَكُمْ أَوَّلُ قَادِمٍ عَلَيْكُمْ .
فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ ، دَخَلَ عَلَيْهِمْ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عليه وَسَلَّمَ .
صَاحَ النَّاسُ جَمِيعًا فَرِحِينَ : هٰذَا هُوَ الصَّادِقُ الأَمِينُ ، مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ .

سَمِعَ مُحَمَّدٌ الحِكَايَةَ ، فَخَلَعَ رِدَاءَهُ ، وَفَرَشَهُ عَلَى الأَرْضِ ، ثُمَّ وَضَعَ
الحَجَرَ الشَّرِيفَ عَلَى رِدَائِهِ ، وَقَالَ لِلزُّعَمَاءِ الأَرْبَعَةِ : لِيَحْمِلْ كُلٌّ مِنْكُمْ
طَرَفًا مِنْ هٰذَا الرِّدَاءِ ، فَحَمَلُوهُ جَمِيعًا ، وَتَصَالَحَ المُتَخَاصِمُونَ .
مَا أَعْقَلَ مُحَمَّدًا ، وَمَا أَذْكَاهُ !

زواج محمد

كَانَ فِي مَكَّةَ سَيِّدَةٌ طَاهِرَةٌ مِنْ قُرَيْش ، اسْمُهَا خَدِيجَة ، وَكَانَتْ غَنِيَّةً وَشَرِيفَةً وَجَمِيلَةً .

مَاتَ زَوجُها فَرَغِبَ كَثِيرٌ مِن أشْرافِ مَكَّةَ فِي زَوَاجِهَا ، فَلَمْ تَرْضَ بِوَاحِدٍ مِنْهُم زَوجا من بعده ، وآثَرَتْ أن تَبْقَى بِلاَ زَوَاج ، فَأَخَذَتْ تُدَبِّرُ مَالَهَا أَحْسَنَ تَدْبِير ، فَكَانت تُسَلِّمُهُ إِلَى الأُمَنَاءِ مِنْ رِجَال قُرَيْشٍ ، لِيَتَاجِرُوا لَهَا بِهِ .

وَفِي بَعْضِ الْمَوَاسِمِ قَالَتْ لِبَعْضِ أَهْلِهَا : أُرِيدُ تَاجِراً أَمِيناً ، يَذْهَبُ بِتِجَارَتِي إِلَى الشَّام .

فَقَالَ لَهَا : لاَ أَحَدَ أَكْثَرُ أَمَانَةً مِنْ مُحَمَّد .

فَدَفَعَتْ خَدِيجَةُ بعضَ مَالِهَا إِلَى مُحَمَّدٍ لِيَتَّجِرَ بِهِ فِي الشَّام ، وَأَرْسَلَتْ مَعَهُ غُلاَمَهَا مَيْسَرَةَ .

ذَهَب مُحمدٌ بِتِجَارَةِ خَدِيجَةَ إِلَى الشَّام ، فَبَاعَ وَاشْتَرى ، وَرَبِحَ مَالاً كَثِيراً ، ثُمَّ عَادَ إِلَى مَكَّةَ وَمَعَهُ مَيْسَرَة ، فَأَدَّى إِلَى خَدِيجَةَ مَا اشْتَرى مِنَ الْبِضَاعةِ ، وَمَا رَبِحَ مِنَ الْمَال .

قَالَ مَيْسَرَةُ لِخَدِيجَةَ :

لَقَدْ رَأَيْتُ عَجَباً يا سَيِّدَتِي فِي هَذِهِ الرِّحْلَة . فِي الطرِيقِ كُنَّا لاَ نُحِسُّ حَرَّ الشَّمْسِ ؛ كَانَتْ غَمَامَةٌ تُظَلِّلُنَا طُولَ الطَّرِيق ، كَأَنَّهَا مِظَلَّةٌ عَلَى رُءُوسِنَا ؛

فِي بُصْرى لَقِينَا رَاهِبًا مِنْ أَهْلِ الشَّأَم ، فَوَقَفَ يَنْظُرُ طَوِيلاً إِلى مُحَمَّد ، ثم سألني عنه ، فَذَكَرتُ له صفاتِه وطهارتَه ، فقال: إن مَن يجلسُ بجوارِ هذه الشَّجرةِ، وتُظِلُّه هذه الغَمامةُ المُنخفِضةُ، وصفاتُه — كما ذَكَرْتها لى — هى صِفَاتٌ للأَنْبياء . . . قد يكونُ النبيَّ المنتَظر .

وأَكَّدت « خَديجةُ » هذا القَولَ ، فقد كانت تَترقَّبُ الشابَّ الأَمينَ « محمدا » وهو قَادمٌ على مَــكَّةَ من رحلةِ الشام ، فرأت ما يُشْبه ذلك .

لقد رأت بِعَيْنَىْ رأسِها سَحابةً بيضاءَ تَصحَبُه حتى دارِها .

وعاد « مَيسرةُ » يقول :

إن الــكَهَنَةَ والرُّهبانَ يَتحدَّثُون فى هذهِ الأيامِ عن نَبِىٍّ يَظهرُ فى هذهِ البِلاد . . وأن هذا مَــكْتُوبٌ فى التَّوراةِ والإنجيل .

وراح « مَيسرةُ » يُكمِلُ حديثه ويقول :

أمَّا فى السُّوقِ فَــكَانَ سَمْحًا ، لَطِيفًا ، صَادِقًا ، أمينًا ، لاَ يُحاوِلُ غِشًّا ، وَلاَ يَطْلُبُ رِبْحًا بِغَيْرِ حَقٍّ .

وَكَانَ مَعِى رَفِيقًا مُتَوَاضِعًا ، طَيِّبَ النَّفْس ، حُلْوَ الــكَلِمة .

قَالَتْ خَدِيجَةُ لِنَفْسِها :

نِعْمَ الشَّابُّ مُحمدُ بْنُ عَبْدِ الله : أَمِينٌ صَادِق ، كاملُ الرجولة ، أَيْنَ فِي الْعَرَبِ مِثْلُ مُحَمَّد ؟

قَالَتْ لَهَا صديقَتُها نَفِيسَة :

لَيْتَكِ تَخْتَارِينَهُ زَوْجًا يا خَدِيجَةُ ، فَهُوَ خَيْرُ رِجَالِ مَــكَّةَ .

قَالَتْ خَدِيجةُ ، هَلْ حَدَّثَكِ مُحَمَّدٌ فِي ذَلِكَ يَا نَفِيسَة ؟

قَالَتْ نَفِيسَةُ : أَنَا أُحَدِّثُهُ إِذَا أَرَدْتِ .

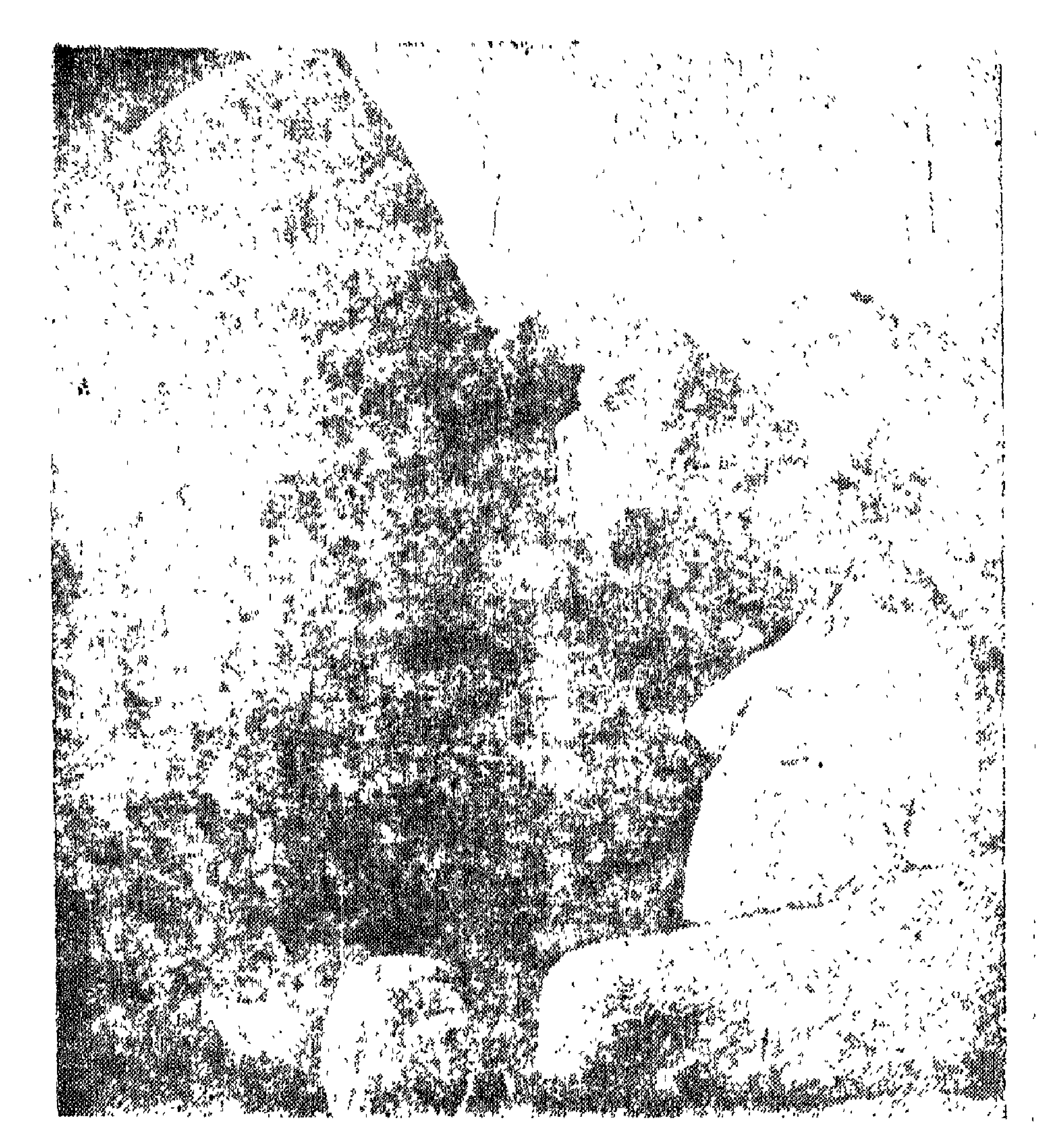
قَالَتْ خَدِيجَةُ : حَدِّثِيهِ يَا نَفِيسَةُ ، ثُمَّ عُودِي إِلَيَّ .

وَفَرِحَ مُحَمَّدٌ حِينَ حَدَّثَتْهُ نَفِيسَةُ بِزَوَاجِ خَدِيجَةَ ، فَتَزَوَّجَا ، وَهِيَ فِي الْأَرْبَعِينَ مِنْ عُمْرِهَا ، وهو فِي الْخَامِسَةِ وَالْعِشْرِينَ .

وَوَلَدَتْ لَهُ أَرْبَعَ بَنَاتٍ ؛ هُنَّ : زَيْنَبُ ، وَرُقَيَّةُ ، وأُمُّ كَلْثُوم ، وفَاطِمَة ، كما وَلَدَتْ لَهُ وَلَدَيْنِ هُمَا : الْقَاسِمُ ، وعبدُ الله .

وَسَعِدَ مُحمدٌ بِخَدِيجَةَ ، وَسَعِدَتْ خَدِيجَةُ بِمُحَمَّدٍ ، وَعاشَ محمدٌ وَخَدِيجَةُ ، مَثَلاً طَيِّباً لِلزَّوْجَيْنِ السَّعِيدَيْنِ الْمُتَحابَّيْنِ الْمُتَعَاوِنَيْن .

مَنَحتْهُ خديجةُ كلَّ حَنانِها ، وعَوَّضَتْه بِمالِها عن الكَدْحِ الذى يَمنَعُه عن خَلوةٍ يتعبَّدُ فيها ، وَتركَت له خَدِيجةُ حُرِيةَ الْحَرَكَة ، ولم تُعَكِّر عليه خَلوتَه وَتأَمُّلاتِه فى غارِ حِراء .



غار حراء

وجاءت الدعوة

كَانَ أَهْلُ مَكَّة يَعْبُدُونَ الأَصْنَامَ . وَكَانَ لِكُلِّ قبيلةٍ صَنَمٌ فى الكَعْبَةِ ، يَذْبَحُونَ لَهُ الذَّبَائِحَ ، وَيَتَقَرَّبُونَ إليه بالدَّعَوَاتِ . وكان مُحَمَّدٌ لا يَعْبُدُها وَلَا يُؤْمِنُ بِها ، ويقول لنفسه :

كَيْفَ أَعْبُدُ حَجَراً لَا يَضُرُّ وَلَا يَنْفَع .

تَوَجَّهَ مُحَمَّدٌ بِقَلْبِهِ وَعَقْلِهِ إِلَى خَالِقِ الأَرضِ والسماء .

وَكَانَ أَحَبَّ مَكَانٍ يَخْلُو فِيهِ إِلَى نَفْسِهِ ، غَارٌ فِي بَعْضِ جِبَالِ مَكَّةَ ، يُسَمَّى غَارَ حِرَاء . كَانَ يَأْخُذُ مَا يَكْفِيهِ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ ، وَيَذْهَبُ إِلى ذَلِكَ الْغَار ، فَيَمْكُثُ فِيهِ أيَّاماً ، يَتَأَمَّلُ وَيُفَكِّرُ ، ويَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لاَشَرِيكَ لَهُ .

وفِي يَوْمٍ مِنْ أيَّامِ رَمَضَان ، جَاءَهُ فِي الْغَارِ مَلَكٌ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ ، هُوَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَام ، ونَادَاهُ : يا مُحَمَّد !

فلبّى مُحَمَّدٌ نِدَاءه .

فقَالَ لَهُ الْمَلَكُ : اقْرَأْ .

فقَالَ مُحَمَّدٌ : مَا أَنَا بِقَارِئٍ !

فضَمَّهُ الْمَلَكُ ضَمَّةً شَدِيدَةً ، ثُم تَرَكَه ، وَقَالَ لَهُ : اقْرَأْ .

قَالَ مُحَمَّدٌ : مَا أنَا بِقَارِئٍ !

فَضَمَّهُ الْمَلَكُ ضَمَّةً ثانيةً ، ثُم تَرَكَه ، وقَالَ لَهُ : اقْرَأْ

قَالَ مُحَمَّدٌ : مَا أنَا بِقَارِئٍ !

قَالَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السلام :

« اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اِقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنسانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ . . . »

فَقَرَأَهَا مُحَمَّدٌ ، وَحَفِظَهَا ، ثُمَّ اخْتَفَى جِبْرِيلُ عَنْ عَيْنَيْهِ . . وكَانَتْ هَذِهِ أَوَّلَ سُورَةٍ فى القُرْآنِ الكَرِيمِ .

فَلَمَّا أَفَاقَ مُحَمَّدٌ ، أَخَذَ يَسْأَلُ نَفْسَهُ فى دَهْشَةٍ : مَاذَا رَأَيْتُ ، وَمَاذَا سَمِعْتُ ؟ وأَخَذَهُ الخَوْفُ ، فَعَادَ إِلَى دَارِهِ يَرْتَعِشُ ، فَقَصَّ عَلَى زَوْجَتِهِ خَدِيجَةَ مَا رَأَى وَمَا سَمِعَ ، فَقَالَتْ خَدِيجَةُ تُشَجِّعُهُ :

« وَمَاذَا يُخِيفُكَ يا مُحَمَّد ؟ أَنْتَ كَرِيمٌ ورَحِيمٌ ، تُحِبُّ الخَيْرَ ، وَتُعِينُ الضُّعَفَاءَ ، فَلَا يُخْزِيكَ اللهُ أبداً » .

كَانَتْ خَدِيجَةُ تَخَافُ عَلَى مُحَمدٍ ؛ فَلَمَّا سَمِعَتْ مِنْهُ مَا سَمِعَتْ ، ذَهَبَتْ إِلَى ابنِ عَمِّهَا وَرَقَةَ بْنِ نَوفَل ، تَسأَلُه عما سمِعت من محمدٍ صلى الله عليه وسلم ، وَكَانَ وَرَقَةُ رَجُلًا مُؤْمِناً بِالله ، وَعِنْدَهُ شَىءٌ مِنَ العِلْمِ ؛ فلمَّا سَمِعَ هذه القِصَّةَ ، ظَهَرَ السُّرُورُ فِى وَجْهِهِ ، وَقَالَ لها :

أَبْشِرِى يا خَدِيجَة ، فَتِلْكَ عَلَامَةُ النُّبُوَّة ، سَيَكُونُ محمدٌ نَبِيًّا ، لَيْتَنِى أَعِيشُ حَتَّى أَرَاه نَبِيًّا .

قَالَتْ خَدِيجَةُ مُشْفِقَةً : وَهَلْ يُؤْذَى محمدٌ مِنْ قَوْمِهِ ؟

قَالَ وَرَقَةُ بن نَوفَل :

كُلُّ الأَنْبِيَاءِ يُحَارَبون يا خَدِيجة .

قَالَتْ خَدِيجَةُ :

لِيَكُنْ مَا أَرَادَ اللهُ !

ثُمَّ أَسْرَعَتْ إِلَى مُحَمَّدٍ فوجَدَتْه نائمًا :

وعز عليها أن تُوقِظَه ، فجَلَست بالقرب منه منتظِرة ، تَكادُ نفسُها تذوبُ من لهفةٍ عليه وحبٍّ وَحنان ، ثم إذا به فجأةً يَنتفِضُ فى فراشِه ، وتَعلُو أنفاسُه ، ويتصبَّب العرقُ من جَبِينِه . وظَلَّ على ذلك فترةً قبل أن تهدأ أنفاسُه ، وكان يبدو عليه كأنما يُصغى إلى مُحَدِّثٍ غيرِ مَرْئِىٍّ ، ثم يَتْلُو فى بُطء كأنه يَستَعِيدُ درسا أُلقِىَ عليه :

« يا أيُّها المُدَّثِّر ، قُمْ فأَنذِرْ ، وربَّك فَكَبِّرْ ، وثيابَكَ فطَهِّرْ ، والرُّجْزَ فاهجُرْ ، ولا تَمْنُنْ تَستَكثِرْ ، ولِربِّك فاصْبِرْ » .

وتلقَّفتْه « خديجةُ » من صَحوِه بين ذراعَيْها وحَدَّثته بما سَمِعت من « وَرَقَةَ ابنِ نَوفل » فنظر محمد — صلّى الله عليه وسلّم — إليها نظرةً تفيضُ شُكرا ثم قال :

« انتهَى يا خديجةُ عهدُ النَّوم والراحة ، فقد أمَرَنى جبريل أن أُنذِرَ الناسَ وأن أدعُوَهم إلى الله وإلى عِبادتِه ، فَمَنْ ذا أدعو ، ومَن ذا يَستَجِيب ؟ »

فَهتفَتْ فى لهفةٍ وإيمان :

« أنا أَستجيبُ لك يا محمد . إنِّى مُصَدِّقةٌ برسالتِك ، مُؤمِنةٌ بربِّك » .

وَوَقَفَتْ « خديجةُ » الزوجةُ المُحِبَّةُ المُؤْمِنةُ إلى جانبِ زَوجِها صلّى اللهُ عليه وسلم ، تُشجِّعُه وتنصرُه وتُعينُه على احتمالِ الأذَى والضرر .

وكان يدعو إلى الإسلام فى بدايةِ الأمرِ فى السرِّ والخفاء ، رغبةً فى أن يَكثُرَ أتباعُه ، وخوفًا على أتباعِه القَليلِين . وأخذ عددُ المسلمين يزيدُ واحدا بعد

واحد . وكانوا يجتمعون سرا فى دار الأرقم ، ومحمدٌ صلى الله عليه وسلم يتمم المعلمُ الصالحُ والمُرْشِدُ الأمينُ والأبُ الذى لا يَكذِب . فيه تجمَّعَت كلُّ الفضائل وصفاتُ النُّبل والكمال .

وكان محمدٌ صلى الله عليه وسلم يَذهبُ إلى الغارِ ليتأملَ ولينتظرِ عَوْدةَ جبريل ، ولكنَّ جبريلَ لم يَعُدْ ، وانقطعَ عن محمد فترةً ، فحزِنَ لذلك حزنًا شديداً ، وراحَ يَذهَبُ إلى الجبَلِ فى كلِّ يوم ، وينظُرُ إلى السماء لعلَّه يَرَى جبريلَ مرّة أخرى .

وبَينما هو يَمشِى حزيناً سمِع صوْتَ جبريل يُنادى ويقُولُ :

يا محمدُ أنت رسُولُ اللهِ ولَن يترُكَكَ اللهُ أبداً ، وسيُعطِيكَ كلَّ ما يُرْضِيكَ . لقَدْ كُنْتَ يتيماً ، فرَعَاكَ ، وكنْتَ فقيراً فأغْنَاك ، وكُنْتَ ضالاًّ لا تعرِفُ طَرِيقَ الهُدَى ، فهدَاكَ وعلَّمكَ ، . . . فاعْطِفْ عَلَى اليَتيم وَعَلِّم الجاهِلَ ، واهْدِ الحائِرَ ، وتَصدَّقْ عَلَى الفقيرِ مِمَّا أعطاكَ ربُّكَ ، ثُمَّ قرأ سُورَةَ الضُّحَى :

« وَالضُّحى وَاللَّيلِ إذَا سَجى * مَا وَدَّعكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى * وَلَلآخِرَةُ خَيرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى * وَلَسَوْفَ يُعطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى * ألَمْ يَجِدْكَ يتِيما فآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَائِلاً فأغْنَى * فأمَّا اليَتِيمَ فلا تَقْهَرْ * وأمَّا السَّائِلَ فلا تَنْهَرْ * وأمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ *

وَظَلَّ جبريلُ يأتِيه بالوَحْى مِنْ عِندِ اللهِ ، وينزِلُ عَلَيْهِ آيةً آيةً ، وسُورَةً من بعد سُورَة ، ما ترَكَت فضيلةً إلا دعَت إليها وأمَرت بها ، ولا رَذيلةً إلا نفَّرت منها ونَهَت عنها .

وممّن آمنوا بالنبي صلّي الله عليه وسلّم فى أول دَعْوته ، بعد زوجته خَدِيجَةَ ، ابنُ عمّه عليُّ بنُ أبي طالب رَضِيَ الله عنه ، وكان فى صِباه ، ومن السَّابقين الأولين زَيْدُ بنُ حَارِثَةَ الذى كان قد أُسِر فى الجاهليةِ ، فاشْتَراه حكيمُ بنُ حزام لعمَّته خَدِيجة بنت خُوَيْلِد بأربعمائةِ دِرهم ، ثم وَهَبَتْه خَدِيجةُ للنبيِّ صَلَّى الله عليه وسلم . ولما جاء أبُوه وعمُّه إلى مَكَّةَ ، وطَلَبَا أن يَدفعا الفِدية ليَعُودوا به إلى مَوطنِه ، خَيَّره النبيُّ بين ذهابه معهما أو أن يَبْقَى مَعه ، واخْتَار البقاء مع النبيّ ، فقام النبيُّ عليه الصلاةُ والسَّلام إلى الحجرِ الأسودِ وقال :

اشْهَدوا أن زَيدًا ابنى يَرِثُنى وأَرِثُه ، فارتاح أبُوه وعَمُّه وَانصَرفَا ، وعندما جَاءت الرِّسالةُ سَارَع زَيدُ بن حَارِثةَ إلى الإيمان بِدَعْوته ، وكان من أول المُسْلمين .

وأولُ مَن آمن بالنبي صلَّى الله عليه وسلّم من غَيرِ أهلِ بَيتِه أبو بكرِ بنُ أبي قُحَافة ، وكان صَديقا له قبل النُّبوّةِ ، عارفا بما اتَّصف به الرسولُ من مكارِم الأخلاق ، وعندما دَعَاه إلى الإسلام قَال أبُو بكر :

« بأبي أنت وأمي ، أشهَدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وأنك رسولُ الله » .

* * *

وكان أبُو بكرٍ عند قُرَيشٍ مُعظَّما مُحْتَرما ، وافرَ المال ، كريمَ الأخلاق ، عَفيفًا ، حُلوَ الحديث ، ولذلك كان للرسول بِمَنزلةِ الصِّديقِ الوفيّ ، وكان يَسْتَشيرُه فِي أمُورِه كلِّها ، وقد عاوَن أبُو بكر الرسول فى الدَّعوةِ إلى الإسْلام .

تعرض أبو بكر بعد إسلامه لأذَى قريش ، فاحْتَمَلَ الأذى وصَبَر عليه ، حتى جاء نَوفلُ بنُ خُوَيْلدٍ ذاتَ يَومٍ ، ورَبَط أبا بكرٍ وَطلحةَ بنَ عبدِ الله فى حَبلٍ

وقرنَهما معا فى قيدٍ واحد ، وعرضَهما للناسِ فى مكّة ، فكانا لذلك يُسمَّيانِ القرينَيْن .

وكان أبو بكرٍ يُلازمُ رسولَ اللهِ بعد أن جاهر بالدعوةِ ، ويُرافِقُه حيثما يسير ، ويَذهبُ معه إلى الكعبةِ ، ويصُدُّ عنه أذى قريش ، وَيدفعُ عنه سُفهاءهم ، ممن كانوا يتعرّضون إليه بالأذى .

***

وممن آمنوا بالدعوة فى أيامها الأولى عثمانُ بنُ عفّان ، وكان شابًّا لا يتجاوزُ الثلاثين من عُمرِه . ولما علم عمُّه بإسلامِه رَبَط كتِفَيْه بالحبالِ ، وحلف ألاَّ يحلَّه حتى يَدَعَ هذا الدِّينَ ، فقال عثمانُ بنُ عفّان :

— واللهِ لا أدَعُه ولا أفارِقُه :

وآمَن بالرسول أيضا الفتى « الزُّبيرُ بنُ العَوّام » من خُوَيْلدٍ من زَوْجتِه صَفِيَّة بنتِ عَبْدِ المُطّلِب عمةِ النبى صلى الله عليه وسلم ، فكان عمُّه يُعلِّقُه ويُرسِلُ الدُّخَان ليرجِعَ إلي دينِ آبائِه وأجدادِه ، فلم يَزِدْه هذا إلا تعلقًا بدينِ محمد .

وآمَن أيضا بدعوةِ محمدٍ صلى الله عليه وسلم عَبدُ الرحمنِ بنُ عَوف ، أحدُ العشرةِ المُبَشّرِين بالجنة ، الذين كانوا موضِعَ مَشورتِه ، ولما علِمت أمُّه بإسلامِه قالت :

بَلَغنى أنك أسلمت ، فواللهِ لا يُظِلُّنى سَقفٌ معك ، وأن الطعامَ والشرابَ علىّ حرام حتى تكفُرَ بمحمد ، وبَقِيَت أمه كذلك ثلاثةَ أيام ، فجاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم وَشَكَا إليه أمرَ أمِّه ، فأوصاهُ أن يُحسِنَ إلى والديْه مُسلِمَيْن

أو كافرين ، وأن يُطيعَهما فى غيرِ مَعْصِيَة ، فإنه لا طاعَة لمخلوقٍ فى مَعصيةِ الخالِق .

وكان طَلْحةُ بن عُبَيدِ الله أحدَ الذين أسْلَمُوا فى البِداية ، وفى القصة التالية يَظهرُ سَببُ إسلاَمِه ، إذ قالَ :

حَضرتُ سُوقًا فى البَصرة ، فقابلتُ راهبًا يقول : سَلُوا أهلَ هذا المَوسِم أفِيهم أحدٌ من مَكةَ ؟ فقال له طَلْحة :

نعم . أنا من مكة .

فقال الكاهِن :

هل ظَهرَ أحمد ؟

قلت :

مَن أحمد ؟

قال ابن عبدِ الله بن عَبدِ المُطَّلِب . . . هذا شهرُهُ الذى يَخرجُ فيه . . وهو آخرُ الأنبياء .

قالَ طَلْحة :

وَقَع قولُ الكاهِن فى قَلبى ، فخرجتُ سَريعا حتى قَدِمتُ مَكةَ .

فقلت : هل من أحْداث ؟

قالوا : نعم ، مُحمدٌ الأمينُ أصبح نَبيًّا .

فذَهبتُ إلى أبى بكرٍ ، وأخبرنى بما حَدث ، فأسلمتُ على الفَور ، وأخبرتُه بما سَمِعتُه من الكاهِن . وكثيرون غيرُهم أسلموا وأطاعوا محمدًا الأمين ، وعاهَدُوه عَلَى الدَّعوة معه . ومحمدٌ صلَّى الله عليه وسلم عندما آمنت به هذه المجموعة من الصَّحابة ، لم يَكُن معه سَيفٌ يَضرب به الناسَ حتى يُطيعُوه خائِفين

أو مَغلُوبين ، ولم يكن معه مالٌ حتى يؤمنوا به طَمَعًا فى ماله ، ومنهم من تَرك المـال الوافر إيمانًا بِربِّه ونَبِيِّه .

ومَـكَثَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم يَدعُو إلى الإسلام جهرا ، حتى نَزَل عليه قول الله تعالى » :

فاصْدَع بِما تُؤْمَر ، أى اجْهَر به ، وأعرِض عن المُشرِكين .

فصَعَد النبيُّ على الجَبَلِ ونادَى : يا مَعْشَرَ قُرَيْش !

فصاح الجميع :

ماذا جرَى ؟ ثم ذَهَبوا مُسْرِعين إلى الجَبَلِ ، لِيَرَوْا مَاذَا يَدْعُوهُم إليه مُحمدٌ ؟!

فلما اجْتَمعُوا به قال لهم :

لو أَخبرْتُـكُمْ أن جُيوشَ العَدوِّ وَرَاء هذا الجَبَلِ آتيةٌ لِقتالِـكم ، أَكُنتُم تصدقون قَوْلى ؟

قالُوا جميعاً :

نعم ، نُصَدِّقُكَ ، فأنتَ فِينا الصَّادِقُ الأمِين .

قال مُحمد :

إنى أدْعُوكُمْ إلى عِبادةِ الله وَحْدَهُ ، لا شَرِيكَ لَهُ ، فَقَدْ أرْسَلَنى الله إليكم ، وأمرنى أن أُبَلِّغَـكُمْ هذه الدَّعْوةَ ، فمن أطَاعَنِى دَخَل الجَنَّة ، ومن عَصَانِى دَخَلَ النَّارَ .

فصَاح أبو جَهْل :

تبًّا لك ، ألِهذَا دَعَوْتَنا ؟

وأخَذَ أبو جَهْلٍ يُحرِّضُ العَرَبَ على مُحمد ، ويَدْعُوهُم إلى مُقاطَعَتِه ، وتَرْكِ دَعْوَتِه ، ويَقُول للنّاسِ :

كيف تَتّبِعُونَ رَجُلاً فَقيراً ، ليس لَهُ مالٌ ، ولَيْسَ له وَلَدٌ . . . إنّه يُريدُ الشُّهْرَةَ والجاهَ بين النّاس ، لهذا ادّعَى النُّبُوّة .

حَزِنَ النبي صَلّى الله عليه وسلم ، فنَزَلَ عليه الوَحْيُ بأن اللهَ أعطاهُ النُّبُوّةَ وهي خَيْرٌ من الأمْوَالِ والأوْلادِ ، فلْيَشْكُرُ اللهَ ، ولا يَحْزَن لمـا يَقُولُه المُشْرِكون ، فَسَيَمْحُو اللهُ أثَرَهُمْ من الدُّنيا ، مَهْما تَرَكُوا من الأمْوَالِ والأولاد ، وأنْزَل الله عليه سُورَةَ الكَوْثَر .

« إنا أعْطيْنَاكَ الكَوْثَر ، فَصَلِّ لِرَبِّكَ وانْحَر ، إنَّ شَانِئَكَ[1] هُوَ الأبْتَر[2] » .

***

وكانت دَعوةُ محمدٍ صَلّى الله عليه وسَلّم تُنَادِي بتحرير العَقْلِ من عبادةِ الأصنامِ ، وتحرير النَّاسِ من العُبودية ، وتَحرير التُّجارِ من الرِّبا ، وتَطهيرِ النَاسِ من الزِّنا والقِمار والخُمورِ .

وكانت هذه الدَّعوةُ أسرعَ إلى قُلوبِ المُسْتَضْعَفِين ، منها إلى قُلوبِ السّادةِ الأغنياء .

ولهذا كان في مُقَدمةِ الذين استجابوا للدعوةِ بلالُ بنُ رباح ، وزيدُ ابنُ حارثةَ ، وصُهَيبٌ الروميُّ ، وعمارُ بنُ ياسرٍ ، وأُمُّهُ سُمَيةُ أوّلُ شهيدةٍ في الإسلام!

---

(١) شانئك : مبغضك الذى يكرهك .

(٢) الأبتر : الذى لا ولد له والمقطوع الذى لا يبقى أثره ، ولا يحسن من بعده ذكره .

ولم يَكن إسلامُ هؤلاء الأرقاءِ والمُستَضعفِين أمراً محمودَ العاقبةِ ، يَسيرَ الثَّمن، ولكنه كان امتِحَانا رَهيباً ، أرخَصُوا فيه حَياتهم واستعذَبوا فيه العَذَاب.

كان بلال بن رَباحٍ عَبْدا لأمية بنِ خَلَفٍ ، آمن بمحمدٍ — صلى الله عليه وسلم — وجاهر بإسلامِه فكان أحد سبعةٍ أظهروا إسْلَامَهم فى فجرِ الدعوة . . رسُول الله — صلى الله عليه وسلم — وأبو بكر ، وعمار بن ياسر ، وأمه سمية ، وصُهَيب ، وبلال ، والمقدادِ . .

وعزّ على أميةَ بنِ خَلفٍ أن يُسلِمَ عَبدُه ، وأن يخرجَ عن دِينِه ، وتكونَ له إرادةٌ حرةٌ فِيما يعتَقِد ، فأمره أن يُعلنَ كُفرَه بمحمدٍ . . ولكنّ بِلَالا كان قد ذَاق حَلاوةَ الإيمانِ ، ولذةَ الحرِّيةِ فيما يدِينُ به ، فأصرّ على إسلامِه ، ووقف يتحدّى سيدَه . .

وأمر أميةُ بأن يُؤخَذَ بلالٌ ظُهرَ كلَّ يومٍ فيُطرَحَ عَاريا ، وتوضعَ على بطنِه الصخرةُ العظيمة ، ثم تهوى عليه السِّياط . احتَملَ كُلّ ذلك وهو يَهتِف : أحدٌ . . أحدٌ . .

ويَمُرُّ به أميةُ وهو فى هذه الحالِ ، فيقول له شامتا مُتَوعدا :

لا تَزال هكذا يا عَبدَ السوء حتى تَموتَ أو تَكفرَ بمحمدٍ .

وَيمر به « وَرقةُ بنُ نَوفلٍ » وهو فى العَذابِ فيقُول لأميةَ :

— أُقسِمُ يا أميةُ لو أنّ عَبدَك بِلالا هذا مات ، وهو يُعذّبُ من أجل ما يُؤْمِنُ به لأجعلَنّ له قبرا كَقبورِ الشُّهداءِ والقِدِّيسين !

وهذه « سُمية » تتعرضُ هى وزوجُها ياسِرٌ وابنُها عمارٌ ، لِأشد ألوانِ العذاب ، ويمرّ بهم أبو جهلٍ مَغيظا محنَقا ، فَيطعنُها فى مَوضعِ العِفّةِ بِرُمحِه حتى تَموت !

وكانَ الكُفارُ أكثرَ عَدداً ، وَأشدَّ قُوّةً ، وَأوْفرَ مالاً ، وكان المُسلمونَ قِلّةً لا يَزيدونَ عَلَى العشرات ، فُقراء لا يَملكونَ مالاً ، ضِعافَ الحَوْلِ والحِيلَة ؛ منهم نِساء ، ومنهم غِلمان ، ومنهم عَبيدٌ يَخدُمونَ فى بُيوتِ الأغنِياء ، وكلُّهم يُحبونَ مُحمداً ، ويؤمِنونَ به ، وَيُطيعونَه .

ولهذا وَضعَ أثرياء المسلمين خطةً لإنقاذِ حَياةِ مَن أسْلمَ من العَبيدِ ، بِشرائهم من سَادَتِهم بأغلَى الأثمان .

وكان أولهم وأكثرهم سَخَاء أبو بكر الصّديق ، فقد ذهب إلى أميةَ بنِ خَلف يَعرِضُ عليه أن يَشترِيَ بِلالا ، وكان أمية قد فَشِل فى حَملِهِ على الكُفرِ بعد الإيمان . .

وطلب أميةُ من أبى بكرٍ خَمسَ أوقياتٍ من الذهبِ ثَمنًا لبِلال ، ولم يُساوِمْ أبو بكر ، فدفع إليه الثمن .

قال أمية :

يا أبا بكر ، لو أبيتَ إلا أوقيةً لَبِعْنَاه لك !

فأجابه أبو بكر وهو يَحلُّ وِثاقَ بلال : لو أبيتُم إلا مائةَ أوقيةٍ لأخذتُه !

وأعتَقَ أبو بكر بِلالا ، وردَّ إليه حُرّيتَه ، ثم اشتَرى وأعتق غيرَه من العبيدِ . .

وكذلك فعل غيرُه من أثرياءِ المسلمين . إنهم لَيَتَسابقون فى تحرير الرّقيق ، يحررُ أبو بكرٍ ستًّا من الجوارِى والعبيد ، ويحرر عبدُ الرحمن بنُ عوف ثلاثين . . وهكذا حتى استَرَدَّ كثيرٌ من الأرِقّاء والبَغَايا حُريتهم وكرامتَهم فى ظِلّ هذا الدِّينِ الجديد .

واستمرَّ المشركون فى الإضرارِ بأتباعِ سيدِنا محمدٍ ، ولكنَّ رجلا منهم شَرِسَ الطبعِ ، حقودًا لئيما ، قال لقريش :

— لا تستخدموا القوةَ مع محمد ، دعونى أذهبْ إليه ، فإن كان يريدُ المالَ جمعنا له ما شاء منه ، وإن كان يريدُ السيادةَ له جعلناه فينا السيدَ المطاع . .

سأذهبُ إليه وأحادثه باللين . .

وذهب « عُتبةُ » إلى سيدنا محمدٍ ، وتحدَّث معه ، فنظر إليه النبيُّ وقال :

— لقد أنزل اللهُ علىَّ قرآنا فى هذه الساعة ، استَمِع إليه يا « عُتبةُ »

وبدأ « عتبةُ » يستمِعُ إلى قولِ الرسول ، فلم يسمعْ فى حياتِه كلاما أبلغَ منه ، وأحسَّ الرجلُ شُعاعًا من النورِ قد اخترق صدرَه ، وأنار قلبَه ، وخرج إلى الكافرين خجلا ، لا يتحدثُ ولا يبتسِم .

فقال له المُشركون من قُريش :

سَحَرك محمد بحديثه .

فقال لهم :

كلا . . بل قرأ علىَّ قرآنا ما هو من صُنْع بشرٍ . . إنه لنبىّ . . هذا ما أراه الآنَ ، فاصنعُوا ما بدا لكُم .

* * *

وصار أبو جهلٍ كالمجنونِ لا يدرى ماذا يقول وماذا يفعل ! وراح يبحثُ عن كلِّ وسيلةٍ ليمنعَ ابنَ أخيه عن الدَّعوة التى بدأت تتزايد وتنتشر هنا وهناك ، وأخيرا ذهب إلى سيدنا محمد قائلا :

يا محمدُ . . اسمع منى . . أعرِض عليك رأيا يُرضيك ويُرضِينا . . تَعبد أنت آلهتَنا عاما ، ونَعبدُ نحن إلهَك عاما آخر ، فَنَشْتَرِكُ نحن وأنت فى الأمر ، فإن كان الذى تَعبده خيرا مما نحن نَعْبُده تبِعْنَاك ، وإن كان الذى نَعْبُدُه خيرا مما أنت تَعْبُدُه تبِعْتَنَا .

وهنا ينزل « جِبْرِيلُ من السماء » ، ويتْلُو عليه قول الله تعالى :

« قل يا أيُّها الـكافِرون ، لا أعبدُ ما تَعبُدُون ، ولا أنتم عَابِدُون ما أعبُد ، ولا أنا عَابِدٌ ما عَبَدْتُم ، ولا أنتم عابِدُون ما أعْبُد ، لـكم دِينُـكم وَلِيَ دِينِ »

ثم يقول لهم النبى :

أفَغيرَ اللهِ تَأمُرُونِّى أعبد ؟

الدعوةُ دعوةُ الله ، يَرْسُمها لِرَسُولِهِ وما على الرَّسُول إلا البَلاَغُ .

ولم يَجِدْ كُفَّارُ مكةَ غيرَ اسْتِعْمَالِ القَسْوَةِ والتَّعذِيبِ .

وكان أبُو لهبٍ عمُّ النبىِّ صلّى الله عليه وسلّم من أشدِّ الناس وأكثرِهم عُنْفا ، كان جارًا للنبىِّ ، فـكان يَرمى الأقذارَ والأوسَاخ بِبَابِهِ ، فـكان عليه الصلاة والسلام يقول :

يا بنى عبد مَنَاف : أىُّ جِوارٍ هذا ؟

أما زَوْجَتُهُ فـكانت تَسُبُّ النَّبِىَّ وتَشْتُمه .

لقد كان النبى يَطُوف بالناس فى مَنَازِلِهم قائلا :

يأيُّها النَّاسُ إن الله يَأمُرُكم أن تَعْبُدُوه ولا تُشرِكُوا به شيئا .

وأبُو لَهب وَرَاءه يقول :

يأيُّها النَّاس لا تترُكُوا دِينَـكم ، ولا تَتْبعُوا دِينَ محمد .

ومن أشدِّ ما لقِيَه النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم ما صَنعه عُقبةُ بن أبي معيط[1] ، إذ كان النبيُّ يُصَلِّي في الكعبة فأقبل عُقْبةُ بن أبي معيط ، فوَضَع ثوبَه في عُنُقِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، فخَنَقَه بِشِدَّةٍ وعنف ، أقْبَل أبُو بكر فأخذه ودَفَعَه بعيدا عن النبي صَلّى الله عليه وسلّم .

واشتدَّ الأمرُ على المشركين . واتَّفَقوا بَيْنَهُم على تَعذِيبِ المسلمين رغبةً في مَنعِهم عن دِينِهم . وكان من أعظمِهم رَغبةً في تَعذِيبِ الرَّسُولِ « عَمرُو ابنُ هِشام » الذى لُقِّب بأبِي جَهْل ، فكثيرا ما يَقِفُ خطيبا بين الجَمْعِ قائلا :

يا مَعْشَرَ قريشٍ : إن محمدا قد جاء يَسبُّ آلِهتَكم ويَسخَرُ من دِينِكم . . . لقد عَزمتُ على أن أضرِبَه بحجرٍ لأحطِمَ رأسَه ، وَليصنعْ بنو عَبدِ مَنافٍ بي ما يُريدُون .

وفي صباحِ يومٍ أخَذ حَجرا ، وجَلَس يَنتظرُ رسولَ الله ، وهو قادمٌ للصلاة كعادتِه ، فلما سَجَدَ أقْبل أبُو جهلٍ بالحجَرِ ليَهوِيَ به على رأسِه ، فلما قربَ منه ، تَصَلبتْ يَداهُ وقَدَماه .

وذات يوم جاء رجلٌ غَريب يَسألُ عن أبي جَهْل ، مُطالبا بحقٍّ له عنده ، فأشارُوا إلى محمد صلّى الله عليه وسلّم ، فلما اقْتَرَبَ منه شَكَا إليه أن أبا جَهْل اشْتَرى منه جَمَلا ، ولم يُعطِه ثَمنَه ، فنهضَ النّبي مع الرّجل في الحال إلى دارِ أبِي جَهْل .

وطرق الباب ، فقام أبو جهل مَذْعُورا ليفتحه ، فلم يُصَدِّق عينيه ، إذ رأى محمدا أمَامه وجْهاً لوجه ، وهو يقول له بكلِّ شَجاعة :

---

(١) رواه البخاري .

أعط هذا الرجل حقه .

اصفرَّ وجهُ أبي جهل ، وشَحَب لونُه ، وارتجَفَ قلبُــه ، وأسرع إلى داخل الدّار . وعاد بعد قليلٍ ومعه صُرة من النقود ، أعطاها الرَّجُلَ ولم يُطِق أن يبقى لحظةً واحدةً بدَاره ، وخرج إلى الناس وهو يتصنعُ القوةَ ، فلا يَقوَى ، ويَنظرون إليه بعيونٍ تتساءل : ماذا جرى ؟ وإذا بلِسانِه ينطلق مُتحدِّثا إليهم : سَمِعتُ صوتَ محمدٍ بالباب ، دخل الرُّعبُ في قلبي ، وخرجتُ إليه ، وخُيِّل إلىَّ كأن فَحْلاً من الإبل ، له رأسٌ كبيرٌ وقُرونٌ وأنيْاب ، هَبَط من السَّماء فوق رأسي ، وكاد يَنقَضُّ علىَّ كالجبل . . . فماذا أفعل ؟

حقاً . ماذا يفعل !

***

كيف يُصبحُ محمدٌ فيهم زَعيما ، وهم الأقوياء والأغنياء ؟ وكيف يَتركُون عِبادةَ الآباء والأجدادِ ، ويَتبعَون دِينَ محمدٍ الذى جَاء به فى آخرِ الأيام ؟

ذَهبوا إلى عَمِّه أبى طالب ، يَرجُونه أن يَمنَع ابنَ أخِيه عن سَبِّ آلِهَتِهِم والسخريةِ بِعُقُولِهِم ، فيَذهبَ معهم أبُو طالبٍ إلى محمدٍ لِيَنصَحَه ويقول له :

— يا ابنَ أخى إن قومَك جَاءونى غاضبين ، فارحَمنِي ولا تُحمِّلْنى من الأمرِ ما لا أقدِرُ عليه :

فيقولُ لعمِّه .

« يا عَمّ واللهِ لو وَضَعوا الشَّمسَ فى يَمِينِى والقمَرَ فى يَسَارِى على أن أتْرُكَ هذا الأمرَ ، ما تَركتُه حتى يُظهِرَه اللهُ ، أو أهلكَ دونَه » .

ولم يَمْلِكْ أبو طالب إزاء هذا الإصرارِ إلا أن يقول له : اذهب يا ابن أخى فقُل ما أحببتَ ، فوالله لا أُسْلِمُكَ لشىء أبدا .

وخرج المسلمون ذات مرةٍ من دارِ الأرقم بن أبى الأرقمِ للطَّوافِ حول الكعبةِ هاتفين بأعلى صَوْت :

— اللهُ أكبرُ . . اللهُ أكبرُ

فَتَلَفَّتَتْ قُرَيْشٌ ، فإذا بهم يَرَوْن عُمَر بِسَيْفِه ، وحمزةَ بِسَيْفِه ، والنبى بينَهُما ، فاشْتَعلت نيرانُ الحقدِ فى صُدورِ المشْرِكين ، وغلت دِماؤهم ، بعد أن تغيَّرت الأحوالُ ، وأصبح العبيدُ كالأحْرارِ ، وأصبح الضُّعفاء لا يَخافُون الأقوياء ، ولم يعُودُوا يَعبُدون الأصنام ، بل رَمَوْها بأحْجَارِهم ، وألقَوْا عليها القاذُورَات ، راغبين فى أن يُطَهِّروا بيتَ اللهِ منها ، لِيعودَ كما كان فى عَهْد إبراهيم عليه السلام .

***

وفكرت قريشٌ فى طريقةٍ أخرى لتعذيبِ أتباعِ محمدٍ صلى الله عليه وسلم ، فاهْتدت إلى طريقةِ المُقاطعةِ التَّامة .

لقد وَقَّعوا فيما بينهم اتِّفاقًا ومعاهدةً وعَلَّقُوها فى الكعبةِ ، تقولُ لكلِّ أهل مَكَّة « لا بيعَ مع بنى هَاشِمٍ ولا شِراء ، لا مُجالسةَ ولا مُصادقة ، ولا زِيارة ، ونساء بنى هاشم تُطرد من بُيوتهم ، مع انْتزاع أطفالهن من أحْضَانهن ، وعلى العشائر أن تَستَردَّ بناتها من بيوتِ أزواجهن الهاشِميِّين .

حَمْلةٌ عنيفةٌ قادَها أبو جهل وأبو سفيان ، لغرضِ تجويعِ بَنِى هاشمٍ وإذلالِهم ، وهم مَحْصُورُون فى شِعابِ مكةَ ، لا يَجِدُون ما يأكلونَه إلا أوراقَ النَّباتات .

وبعد فترةٍ تحرّكَ هِشامُ بنُ عَمرِو بنِ ربيعة ، وأخَذَ مَوقِفًا نبيلاً ، وثارَ على هذه الصَّحيفةِ أو هذه المقاطعةِ ، فحرك ضمائرَ بعض أهلِ مكةَ ، واتّفقوا على إنهاء هذه المُقاطَعةِ و تمزيق الصَّحيفة .

وفوجِيء أبو جهلٍ وهو يجلسُ بين قومِه في ظلِّ الكعبةِ بزهيرِ بنِ أبي أمية وصَحْبِه وهو يقول :

— يا أهلَ مكةَ : أنأكلُ الطعامَ ونشربُ الشرابَ وبنُو هاشمٍ جَوْعَى ، لا نبيعُ لهم ولا نَشْتَري منهم ؟ لا بدَّ أن نُوقِفَ المُقاطَعة .

عندئذٍ يعارِضُه أبو جهلٍ مُتَحَدِّيًا ، فَيَحْتَدِمُ الجدلُ ، ويتصايحُ الرجال ، ويتقدمُ « زُهَيرٌ » وصحبُه معه ، فيُمزِّقون الصَّحيفةَ .

وينهارُ ذلك الحِصار ، ويعودُ بنو هاشمٍ من شِعابِ الجِبالِ ، إلى دُورِهم في مكةَ .

* * *

وبدأ أنصارُ دعوةِ سيدِنا محمدٍ يَتَزَايدُون يومًا بعد يوم في مكةَ ذاتِها ، وفي خارج مَكةَ ، وتحركَ الناسُ من يَثْربَ (المدينة المنورة فيما بعد) ، قادمين في مَوسِمِ الحجِّ إلى مكة ، فيلقاهم النبيُّ عند مَدخل مَكةَ ، ويَدعُوهم إلى الإسلام ، فيَدخُلون في هذا الدين جماعاتٍ وجماعات ، ونُفوسهم راضية ، ووجوهُهم باسمة ، وقلوبُهم مُطمئِنة ، يَتَعلمون منه بعضَ ما علّمه الله ، ويَعودون بعد الحجِّ في فرحٍ وسرور ، ويُخبرون أهلَهم وعَشِيرتَهم بما سَمِعُوا ، فَيَشْتَاقُون للنبي ، ويُسرِعون بدَورِهم في الرَّحيلِ إليه ، فيُبايعُونه على أن يَنصرُوه إذا جاء إلى بَلدِهم .

تمت بَيْعةُ أهلِ المدينة فى الشهرِ الحرامِ الذى لا يَحِلُّ فيه العربُ سَيفا ، ولا يَقتُلون أحدا ، ولا يَرتـكِبون جَرِيمةً ، وتلك هى الحُرُماتُ التى يُقدِّسونها وقد وَرِثُوها عن سَيِّدِنا إبراهيم عليه السلام الذى بَنَى الـكعبةَ مع ابنِهِ إسماعيل ، وهو أبو العربِ أجمعين .

بايع المُسلمون من أهْلِ المدينة النبى ، واتَّفقوا على أن يُطَالِبُوا بِدَمِه إذا قَتَلَهُ المُشركون لا قَدَّر الله ، و تَعهَّد النبىُّ بأن يُطالِبَ بدمائِهم إذا قَتل المُشركون أحدا من مُسلمِى المدينة .

الإسراء والمعراج

بجانب ما قاساه النبيُّ صلى الله عليه وسلّم وأتباعُه من مُقاطعةِ قريشٍ هذه المدةَ الطويلة ، فوجئ عليه السلام فى عام واحدٍ بفاجعتَين ، ساقهما إليه القدر ، كان لهما فى نفسه الشريفةِ هزةٌ عنيفة ، هما : موت زوجتِه « خديجةَ » التى كانت توليه من حبِّها وبرِّها وحنانِها وإيمانِها ، مَا يَشُدُّ أزرَه ، ويُقوِّى نفسَه ، ويُهوِّن عليه موقِفَ القوم منه ، وموتُ عمِّه أبى طالب الذى كان يَحميه من النَّاس .

فُوجِئ عليه السلام بهاتين الفَاجِعتين فتضَاعَفت أحزانُه ، ونالت منه قريش ما لم تَكُن تَطمعُ أو تفكرُ فيه أثناء حياتهما ، اعترضه السُّفَهاء ، ونثروا الترابَ على رأسِه وَوجهِه ، وطَرَحوا القاذوراتِ على كَتِفَيْه ، وهو قائمٌ يصلِّى بين يَدَىْ ربِّه .

وبَيْنَمَا كان يقاسِى هذا العذابَ فكر فى الذَّهابِ إلى مدينة الطَّائفِ يَطلبُ العونَ والمساعَدة ، فقابلوه أسوأ مُقَابلة ، فرجَع حَزِينا ، ولجأ إلى ربِّه ليُخلِّصَه من سُخريةِ قومِه ، وأن يُعوِّضَه عن فَقدِ زَوجتِه وعمه ، وهو يَتَضرَّع إلى الله ويقول :

« اللهم إليك أشكو ضَعْفَ قُوّتى ، وقِلّةَ حِيلتى ، وهَوانى على الناس ، يا أرْحَم الراحمين ، أنتَ ربُّ المستَضعَفين ، وأنتَ ربِّى ، إلى من تَكِلُنى ؟ إلى بَعيدٍ يَتجَهَّمُنِى ، أو إلى عدوٍ ملَّكْتَه أمرى ، إن لم يكنْ بك علىَّ غَضبٌ فلا أبالِى ، ولكنّ عافِيتَك أوْسَعُ لى ، أعُوذ بنُورِ وَجْهِك الذى أشرَقَت له

الظُّلُمات ، وصَلح عليه أمرُ الدُّنيا والآخِرة أن تُنزِلَ بى غَضبَك أو تحِلَّ علىَّ سَخَطَك ، لكَ العُتبَى حتى ترْضَى ، ولا حَولَ ولا قُوَّةَ إلا بالله » .

وفى ليلة مباركة ، هَدَأت رِيحُها ، وخَيَّم على الـكونِ السُّكُون ، والنبىُّ بينَ النَّومِ واليَقظة ، أمَدَّ اللهُ نبيَّه بالعَونِ والتشجيعِ ، وسَرَى[1] به من المَسجدِ الحرامِ إلى المَسجدِ الأقصَى ، فإذا به فى لَمحِ البَصر ، يَتخطَّى الجبالَ والوِديانَ إلى القُدس ، وهناك تُطالِعُه فى جَوفِ الليل أنوارٌ ساطعةٌ من حَولِ المسجدِ الأقصَى المُبَارَكِ ، والأنبياء والمُرسَلون يُرحِّبون به ، ثم تأتيهِ دابةٌ لها جَناحان يَركَبُها فتَصعَّدُ به فى السموات العُلَا ، فيرى نُورَ رَبِّه ساطعا يَـكادُ يَخطِفُ الأبصارَ . فيَسأل « جبريلَ » رفيقَه فَيشرحُ له كلَّ شىء ، ويَعرفُ النبىُّ صلى الله عليه وسلم أن أهلَ الخَيرِ هم الفائِزُون ، وأن أهلَ الشرِّ هم الخاسِرُون .

ويَعودُ سيدُنا محمدٌ صلّى الله عليه وسلم إلى المسجد الحرَام بمكةَ ، وقد امتلأ إيمانا ، وازداد ثقةً بأن الله نَاصرُه ومُؤيِّدُه ومُنقِذُه من هؤلاء القوم الـكافرين ، فزالت مخاوفُه ، ونَزَلَ قَولُ الله تعالى :

« أَلَمْ نَشْرَحْ لكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنا عنكَ وِزْرَكَ * الذى أنْقَضَ ظَهرَكَ * وَرَفَعْنا لكَ ذِكرَكَ * فإنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرًا * إنَّ مع العُسْرِ يُسْرًا * فإذا فَرَغْتَ فانْصَبْ ، وإلى ربِّكَ فَارْغَبْ » .

هكذا يُثبِّتُ اللهُ نَبيَّه ، ويُطَمئِنُه على حُسنِ العاقبة ، فيَقوى على احتمالِ أعباء الرِّسالةِ ومَتاعبِ الهِجرة .

---

(١) سار به ليلا .

هجرة المسلمين

وكانت الدعوةُ الإسلاميةُ كلما كسبت أنصارا ومؤيدين ازدادتْ قريشٌ عداوةً وعُنْفا لمحمدٍ وأتباعِه ، لذلك رأى النبيُّ صلى الله عليه وسلم أن يأذنَ لِمَنْ شاء من المُسلمين أن يُهاجِرَ حِفاظا عليه وعلى دينِه ، ورغبةً فى نَشر الدِّين فى موطنٍ جديد .

وهَاجَرَ بعضُ المسلمين إلى الحبشةِ ، ومنهم من ترَكَ تجارتَه الواسعةَ وأموالَه الكثيرةَ فى مكَّة ، لا يَعْنِيه شيءٌ منها ما دَامَ قد أصبح آمِنا على دينِه .

وهناك طلب « النَّجاشِي » مَلِكُ الحبشةِ مُهاجِرى المُسلمين ، فجاءوا إليه ، وقد تقدمهم جعفرُ بنُ أبى طالِب فسلَّم عليه ، ولم يَسجُدْ كما كان مُتَّبعًا .

وقال له النَّجاشى : ما لكَ لا تَسجدُ لِلْمَلِك ؟

فأجاب : نحن قومٌ لا نَسجُد إلا للهِ عزَّ وجَلَّ .

قال الملك : ماذا تقصِدُ بذلك ؟

فأجاب جَعْفر : إن الله عزَّ وجلَّ أرسل إلينا رسولَه محمدًا صلى الله عليه وسلم وأمَرنا ألَّا نَسجدَ إلا للهِ ، خَالِق السموات والأرض .

فقال النَّجاشى :

إنه الرسولُ الذى بَشَّر به عِيسَى بنُ مَريَم . . . انزلوا حيثما شِئْتم فى هَذهِ البِلاد .

***

وكان أهلُ المَدينةِ فى كلِّ عامٍ ، يحُجُّون إلى الكعبةِ فى مَكةَ ، فَسمِعوا دَعوةَ محمدٍ وآمنوا بها ، فلما رجعوا إلى قومِهم فى المَدينةِ أخبروهُمْ ، وَدَعَوْهُمْ إلى الإسلام ، فَأَسْلَمَ مِنْ أهلِ المدينة ناسٌ كَثيرٌ .

فلمّا أذِنَ محمدٌ لأصحابِه فى الهجرةَ ، كانت هِجرةُ الكثيرِين منهم إلى المدينةِ ؛ وظلّ محمد وقليلٌ من أصحابِهِ فى مكةَ يَلْقَوْنَ الأذى ، والمسلِمونَ معَ ذلك يَزيدون ويُهاجرون إلى المدينةِ ، وَاحِدا بعدَ واحِد ، وجماعةً بعد جماعة .

* * *

وأخَذ المُسلِمونَ يتزايدون . . . وأخَذ المشركون يَزدادون اضْطِهادا لهم وعُنفا معهم ، وانْتَهى بهم الغَيظُ إلى أن يَقولَ أحدُهم :

— لا سبِيل إلى منعِ دَعوةِ محمدٍ إلا أن نَقتلَه ، وبذلك تَبطلُ دَعوتُه ، ويَرتدُّ أتباعُه إلى عِبادةِ آلِهتِنا وأصنامِنا .

وقال آخر :

— نعم نَقتلُه . . لكن كيف نَقتلُه ، وقبيلتُه لن تَسكتَ عن الأخذِ بالثّأرِ ؟

وقال ثالث : مَن الذى سَيقتلُ محمدًا لِيقتُلَه أهلُ محمدٍ غدًا أو بَعد غدٍ ؟

فقام أبو جهلٍ بينهم وقال :

— إنكمْ قبائلُ كثيرةٌ ، والرأىُ عِندى أن كلّ قبيلةٍ تختارُ شابًّا جَرِىءَ القَلب ، ثمّ يحمِلُ هؤلاء الشُّبانُ سيوفَهُم ، وينتظِرونَ محمّداً على بابِ دارِهِ ، حتى إذا رأَوْهُ يَخرُجُ من مَسكَنِه ليُصلِّىَ الصُّبحَ كعادَتِه ، ضَربُوهُ جميعاً بسُيوفِهِمْ ضَربَةَ رجلٍ وَاحِدٍ ، وبِذلك يَتفرّقُ دَمُه فى القبائِلِ كُلِّها ، فلا تَقوَى قبيلةُ مُحمّدٍ عَلَى حربِهِمْ جميعـا ، فتَسكُتُ وتَستسلِم ، ويعودُ أصحابُه إلى أهْلِهِمْ وَدينِهِمْ فلا تَقومُ لهذا الدِّينِ قائمةٌ ، ولا يَرتفعُ له صَوت .

هِجْرَةُ النبى من مَكّةَ إلى المدينة

وأوحَى جِبْرِيلُ إلى النّبى صلّى الله عليه وسلم ، أن يُهاجِرَ إلى المدينَةِ ، فى الليلةِ التى حَدَّدها الكُفّارُ لتَنفيذِ جَرِيمَتِهِمْ ، وأَخْبَرَ النّبى صَدِيقَهُ أبا بكرٍ بِعَزْمِهِ على الهِجْرَة .

وكان لا بُد أن يَجِدَ من ينامُ فى فِراشِهِ لِيُوهِمَ المشرِكين أنه لم يَخْرُجْ من دَارِهِ .

عَرض أبو بكرٍ هَذه الفِكرةَ عَلَى الفَتَى « عَلِىِّ بن أبى طَالب » فَقَبِل من غيرِ تَرَدُّدٍ ، قَبِل فى شجاعةٍ ، وأصرَّ عَلَى أن يَنامَ فى فِراشِ النبىِّ فى هذه الليلةِ ، وبرغمِ ما فى ذلك من خَطرٍ على حياتِهِ .

وبَدأ المتآمِرُونَ يَتجمَّعون عندَ بابِ بَيتِ رسولِ اللهِ ، ونظروا من ثَقْبِ الباب وقال أبُو جهل :

— ها هو ذا « محمد » نائمٌ فى فراشِهِ . . إنه لم يَرحَل بعدُ . . . ورَاحوا ينظُرون بِدَورِهم واحدا بعدَ وَاحِدٍ .

وعندئذ يَصيحُ أبو جهلٍ قائلا (وهو يُلوِّحُ بسَيفِه) :

— إذَن مُحمدٌ فى قَبضَةِ أيدِينا .

فصاحَ واحدٌ منهم قائلا :

— ما عَلينا إلا أن نُرابِطَ هُنا حتى يَخْرُجَ عَلينا ، وأقبل عليهم « سُهَيْلٌ » وكان قد جاء مُتأخِّرا .

فصاح « أبو سفيان » أحدُ هذه العصابةِ المتمرِّدة قائلا :

— لِمَ تأخرتَ يا « سُهَيْلُ » ؟

فرد قائلا :

— لَا أُخفِي عنكم ما أشعُرُ به .. إننى مَا زِلتُ حتى الآنَ فى شَكٍّ من أن تَنجَحَ خُطَّتُنا . .

فصاح أبو جهلٍ فى وَجهِه ، وقال :

— يا لَكَ من فَتى ضَعيفِ الإرادةِ والعَزيمة .

فَرَدَّ « سُهَيلٌ » قائلا :

— لِمَ لا نَتركُه يُهاجرُ إلى يَثربَ (المدينةِ) فَنَستريحَ مَكةُ منه ؟

فرد أبو جهل قائلا :

— لو تَركناهُ يَذهَب إلى يثربَ لزَادَ خَطرُه ، وامتدَّ سُلطانُه . ثم يَأتى مَكةَ فاتحًا لِتأدِيبِنا .

وقال كشَيْب :

— وإذا قَوِىَ مُحمدٌ وأنصارُه فى المدينةِ سَدَّ علينا طريقَ تِجارَتِنا مع الشَّام ، وفى ذلك قَطعٌ لأرزاقِنا .

فصاح أبو جَهلٍ فى غَضبٍ قائلا :

— لقد جِئْنا إلى هنا لِقتْلِه لا لِلمُناقَشةِ والحِوار... لابُدَّ أن نَقتُلَه ونَضرِبَه بسيوفنا ضَربةَ رجل واحد . . . وعندئذٍ يَتفرّقُ دَمُه بين كلِّ القبائل .

فصاح الجميع :

— الرأىُ رأيُك .. لا بُدَّ أن نَقتلَه ونَستريحَ ، .. وهذا ما جِئْنا من أجْلِه :

فعاد « سُهَيْلٌ » يقول :

— حَدِّثْنَا يَا أَبَا الحكمِ [1] ، كيف أفلت « مُحمدٌ » منك قبل ذلك ؟

فقال أبو جهل :

— أَقبلتُ يومئذٍ لأقتلَه ، وأخاصِمَه منه ، وما إنْ دَنَوْتُ منه حتى رَجَعتُ مَرْعُوبًا ، وقد تَصَلَّبَتْ قَدَمايَ ، وَارْتَعَشَتْ يَدايَ ، وأَظْلَمَتْ عَيْناي .

فضَحِك « سُهيلٌ » وقال :

— لقد سَحَرَكُم « محمد » يا أبا الحَكَمَ .

فردّ أبُو جهلٍ غاضبا وهو يقول :

— إنْ كان قد سَحرني يومئذٍ فما هو بِقادرٍ هَذه الليلةَ .

ويعود أبو جهلٍ لِيَنْظُرَ مِن ثَقبِ البابِ ، ويقول :

— ها هو ذا محمدٌ باقٍ في فراشِه . . إنه مُستغرِقٌ في نَومٍ عَميق .

ويقول « أبو سفيان »

— رُبَّما لا يَخرجُ الآنَ .

فَيَرُدُّ أبو جهلٍ قائلا :

— سَنظلُّ هنا وَاقِفين وقاعِدين مهما كَلَّفَنا من مَشَقّةٍ وعَناء . . . وماذا يَضيرُنا لو بَقِينا بِبابِه أيامًا حتى نقتُلَه ، ونُخلِّصَ الناسَ منه ؟

وَبينما هم على هَذهِ الحالِ مرَّ بهم راعٍ ، وصاح قائلا :

— يا قومُ ؟ ماذا تَنتظِرون ها هنا ؟ !

فيقول أبو جهلٍ :

---

(١) أبو الحكم هو عمرو بن هشام بن المغيرة الملقب بأبي جهل .

— أَصَمتْ وَيحَك . . . ماذا تُريد ؟

فقال الراعِي ضاحكا :

— لقد خَابَ أَمَلُكم ... ما أَظنُّكم إلَّا مُنتَظِرين خُروجَ محمدٍ لِتَقتُلُوه ! .

أنتم وَاهِمون . لقد أفلتَ الصَّيدُ من أيدِيكمُ وعاد الراعِي يُقهقِهُ عاليا ، فصاح أبو جهل فى وجهه وقال :

— أىَّ صَيدٍ تَقصِد أيها الراعِي المجنُون ؟

فقال الرّاعى سَاخِراً :

— لقد خرج محمدٌ وأنتم وقوفٌ ببابِه . . . وما تَرَكَ فيكم رَجُلاً إلا وقد ألقَى على رَأسِه التُّرابَ

فاندفع « كُثَيب » و « سُهَيل » نحو ثقبِ البابِ وقالا .

— إن محمداً لنائمٌ فى فراشِه ، ما تَحَرّكَ مرة .

فاندفع أبو جهلٍ نحو الراعِي يُريدُ قتلَه . فقال له الراعى ضاحكا :

— انفُضُوا تُرابَ الخَيبةِ عن رُءوسِكم . . قبل أن تُفكِّروا فى قَتلِي .

وراح كلٌّ واحدٍ منهم يَضعُ يَدَه على رأسِه فيَجِدُ ترابا فيَنفُضُه .

فيقول « سهيل » :

— يبدو أن ما يقولُه الراعِي صَحيحٌ .

فَيردُّ أبو جهل قائلا :

— اقتحِموا الدارَ على « محمد » واقتلُوه .

ويَدخُل الجميعُ ويَنزِعُون الغِطاء عن النّائم . . فإذا هو علىٌّ بن أبِى طالب فيأخُذُهم النَّزعُ والدهشةُ ، ويَصيحون غاضِبين قائلين :

— الويلُ لكَ يابْنَ أبي طالبٍ !

ويندَفعُ « عُتْبَةُ » نحو « عليِّ بنِ أبى طالب » مُهدِّدا بِقتْلِهِ ، بدلا من محمدٍ « صلى الله عليه وسلم » :

فيَصيحُ « عليٌّ » فى وَجهِهِ قائلا :

— متى كان لكَ سَيفٌ ترفعُه فى وَجهى يا عُتْبةُ ؟ !

فيَهجُمُ « عتبةُ » على عليِّ بنِ أبى طالب ، فيَمنعُه أبُو سُفْيانَ قائلا :

— لو قتَلْتَهُ يا عُتبةُ فسيأتى بَنُو هاشمٍ ليأخُذُوا بثأرِهِ

ويصيح أبُو جَهْل قائلا :

— دَعُوا عَليًّا الآنَ .. وَاجْعَلوا هَمَّكُمُ البحثَ عن «محمدٍ» حتى تُمسِكوا به ، وتَقتُلوه .

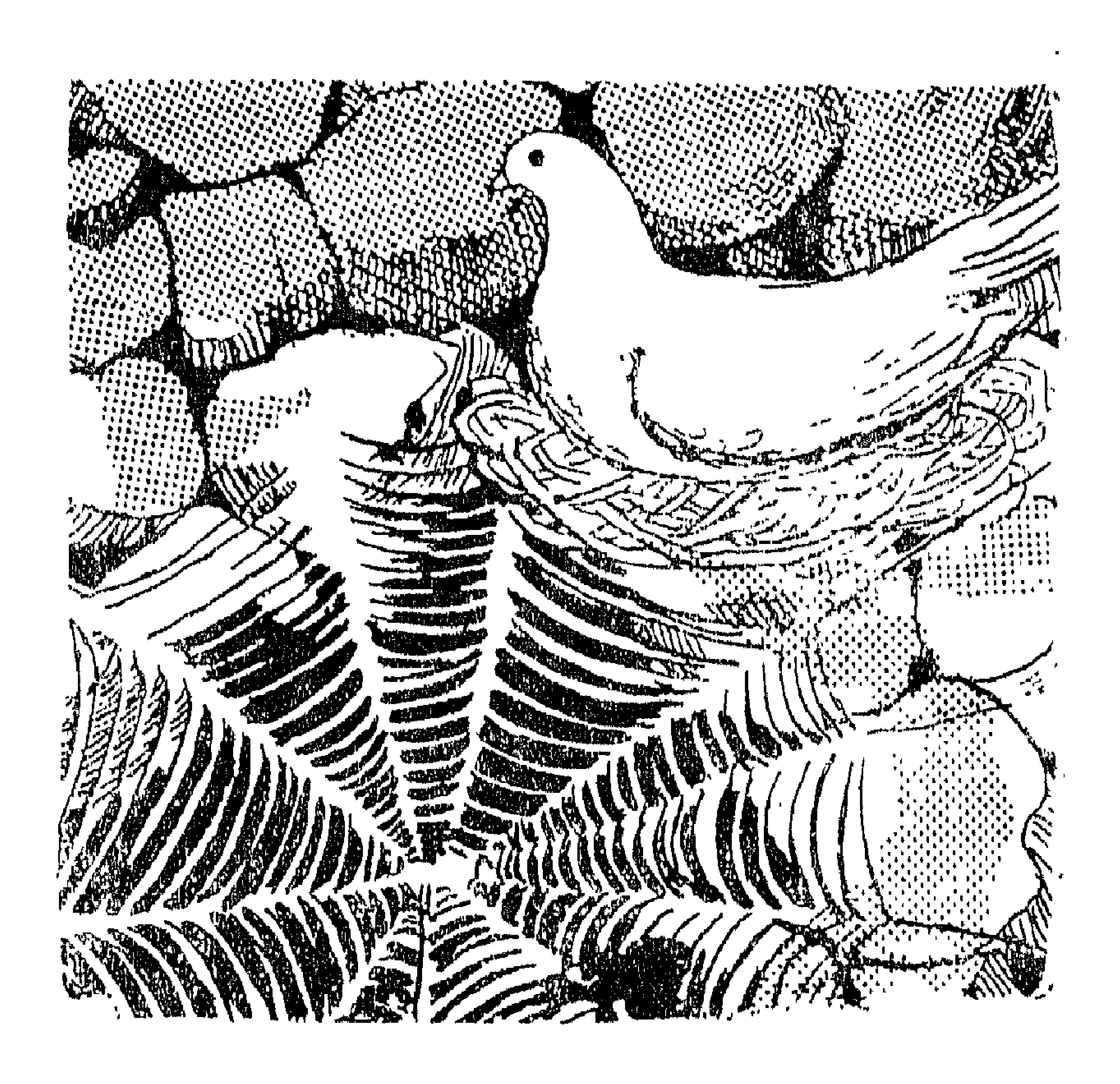
وَيترُكُ الجميعُ المكانَ مُندفِعين إلى الصحراءِ ، بَحْثاً عن محمدٍ صَلَّى الله عليه وسلم .

كَانَ النبىُّ وصاحبُه قد رَحَلَا ، وَبَعُدا عن مكةَ ، ونزلَا فِى غار عَلَى الطَّرِيق ، اسْمُهُ غَارُ ثُورٍ .

وكانَ كُفَّارُ مكةَ ، قد خرجوا جَماعاتٍ جَماعاتٍ ، يُتابِعُونَ أثَرَ النبىِّ وصاحِبِهِ عَلَى الرَّمْل ، وما زالوا يُتابِعونَهُ حتى انقطع ، بالقُربِ منَ الغَار .

هناكَ وَقَفوا حَيارَى ، يَنظرُون حولَهم فلا يَجِدون أحَداً ، ولا يَروْنَ أثرا لقدمٍ .

وحفِظَ اللهُ رسولَهُ من الكُفَّار ، فعشَّشت حمامتَانِ عَلَى بابِ الغَارِ ، ونَسجتْ عَنْكبوتٌ شبكةً من خَيطِها حولَ عُشِّ الحمامَتَيْنِ ، كل ذلكَ فى لحَظاتٍ كما فى الرسم .



باب الغار

ولما رأى الكُفّارُ عُشّ الحمامتين ، ونسيجَ العنكبوتِ ، أيقنوا أنّ محمداً وصاحِبَه ، لم يدخُلا هذا الغارَ ، فانصرفوا يبحثُونَ عنهُما في طريقٍ آخَر ؟

وكان النبيُّ وصاحِبُه في الغار يَسْتَمِعان أصواتَ الرِّجال ، وَهُمْ يتجادَلون عند بابِ الغارِ ، وخافَ أبو بكرٍ عَلَى النبيِّ ، وامتلأ قلبُه حُزناً ، وهَمَس في أذُنِ النبيِّ : لو نَظَرَ أحدُهُم تحتَ قدمَيْه لأبصَرَنا !

قالَ النبي : يا أبَا بكر ، لا تحزَن إن اللهَ مَعَنا . وفي هذا الحادِث نَزَلَ قولُ اللهِ تعالَى :

« إلّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ ، إذْ أخْرَجَهُ الّذِينَ كَفَرُوا ثانِيَ اثْنَيْنِ إذْ هُما فِي الغَارِ ، إذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ ، إنّ اللهَ مَعَنَا ، فأنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ ، وَأيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْها ، وَجَعَلَ كَلِمَةَ الذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى ، وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ العُلْيا ، وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » . (قرآن كريم : سورة التوبة)

***

وفي صُبحِ الليلةِ الثالثةِ ، جاءهما دليلُ الصحراء الذي سَيَصْحَبُهُما إلى يثرب (المدينة) وكان البحثُ عنهما قَدِ انقَطع .

وفي أثناء سَيرِهما في الصّحراء مَرُّوا على أمِّ معبد ، وكانت تجلسُ بفِناء الخيمةِ ، وتُطعِمُ وتَسقِي مَن يَمُرُّ بها .

وطلب أبو بكرٍ حَليبا أو لحما أو تمرا يَشترونه منها ، فلم يجدوا عندها شَيئا ، وقالت :

— واللهِ لو كان عِندنا شيء ما مَنَعْنَاهُ .

ونظَرَ النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم إلى شاةٍ هَزِيلةٍ من الغنم، وسأل أمّ معبد :

— هل بها من حَليب ؟

فقالت :

— هى أضعفُ من ذلك .

فقال لها النبيُّ :

— أتأذَنِينَ لى أن أحْلبَها ؟

فقالت أمُّ معبد :

— بأبى أنتَ وأمّى إنْ رأيتَ بها لبَنا حَليبًا فاحْلُبْها .

وما أنْ أمسكَ النّبيُّ صلّى الله عليه وسلّم بضَرعِها حتى بَدأ لَبَنُها يَسِيل ، فَسَقى النبيُّ كلَّ مَن حَوْلَه ، ثم حَلَب مرةً أخرى فشَرِبوا ، وترَكَ بعضَه وقال :

— ارفَعى هذا لأبى مَعْبَد .

ثم رَكِب رسولُ اللهِ ومَن مَعه ووَاصلوا السَّيْرَ .

وعندما عاد أبُو معبد ورأى اللبَنَ الحَليبَ عَجِبَ ، وقال :

— ما هذا يا أمَّ معبد ؟ مِن أين لك هذا ، والشاة هزيلةٌ لا تُحْلَب ؟

فقالت :

— لقد مَرَّ بنا رجلٌ مُبارَكٌ . . . ووَصَفَتْه له . . فقال مَعْبدٌ :

— هذا محمدٌ الذى تَبْحَثُ قُرَيشٌ عنه .

وكان المُشرِكون قد جَعَلوا لِمَن يَدُلُّ عليهما أو يُمْسِك بهما مُكافأةً قَدرُها مِائةٌ من الإبِل ، ليَجِدَّ الناسُ فى البَحثِ عنهما ، ولكن لم يَهتَدِ إليه أحد إلا «سُراقة» الذى كان يَجِدُّ ليلا ونهارا للبحثِ عن الرّسُول ، ليَنالَ مِائةَ الناقةِ

تَبِعَه سُراقةُ بفَرَسه حتى كان على مقربة منه فقال أبُو بكر :

— لقد لَحِقَنا الرَّجُلُ .

فقال النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم :

— لا تَحزن ، إنَّ اللهَ معنا .

ودعا النبي صلى الله عليه وسلم ربَّه وقال :

— اللهُمَّ اكْفِنا كيفما شِئْتَ .

وإذا قوائمُ فرسِ سراقةَ تغوصُ في الرمال إلى الرُّكْبَتَيْن ، فقال « سُرَاقة » :

— انظروا إليَّ أُكَلِّمْكُم ، فواللهِ لا يَأْتِيكُم مني شَيء تكْرَهُونه . . . يا محمدُ : قد آمنت أنَّ هذا عَمَلُك ، فادْعُ رَبَّك أن يُنَجِّيَنِي مما أنا فيه .

وقال له النبيُّ صلّى الله عليه وسلم :

— قِفْ مكانَكَ لا تتْرُكَنَّ أحدا يَلْحَقُ بنا .

وَوَاصَلَ النبيُّ سَيْرَه إلى يَثرب (المدينةِ) وَعادَ « سُراقةُ » إلى مكة .

***

وكان أهل يَثرِب يَخرجُون كلَّ يَوم إلى خارِج المدينة لِانْتظارِ الرَّسول ، والترحيبِ به ، بعد أن وَصَلتْهم أنباء هِجرتِه إليهم .

وما إنْ ظَهَرت طَلعتُه البَهِيَّة ، حتى هَلَّلَ الجميعُ وكَبَّروا ، فَرِحين بقُدومه يُرَدِّدون :

طَلَعَ الْبَــدْرُ عَلَيْنا مِنْ ثَنِيَّاتِ الْوَدَاعْ
وَجَبَ الشُّــكْرُ عَلَيْنا مَا دَعَـــا لِلهِ دَاعْ

أَيُّهَا الْمَبْعُوثُ فِينَا جِئْتَ بِالْأَمْرِ الْمُطَاعْ
جِئْتَ شَرَّفْتَ الْمَدِينَهْ مَرْحَبًا يَا خَيْرَ دَاعْ

وأولُ عملٍ قام به النبيُّ صلى الله عليه وسلم أنه أزال الخِلافاتِ والعَدَاوَاتِ بَيْن قَبِيلَتَى الأَوْسِ والْخَزْرَج ، وسَمَّاهما الأنصارَ .

وكان اليَهُودَ يكسِبون من وراء هـذا الخِلاف ، وكانوا يَدفعون كلَّ قبيلةٍ لتُحارِبَ الأخرى ، فيَضْعُفَ كل منهما ، ولـكن قُدومَ النبيِّ صلّى الله عليه وسلّم آخَى بين المُهاجِرين والأنْصار ، وأصبح الجميعُ جَمْعًا واحدا ، وأُسرةً واحدة ، وكأنَّهم وُلِدُوا من جَديدٍ .

وراح الأنصارُ يَستَقْبِلون المُهاجرين فى حَفَاوةٍ وتَرحيب ، يُنزِلونَهم فى دُورِهِم ، ويُقاسِمونَهم أموالَهم ، وفى ذاك قال الله تعالى :

« وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ، وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا ، وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ، وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » .

وكَتَب رسولُ اللهِ بين المهاجرين والأنصارِ « مُعاهدةً » بَيَّن فيها دعائِمَ الأُخُوَّةِ التى تَقُومُ بَينهم فى مُجتَمَعِهم الجديد ، وقد أقرَّ فيها اليهودَ على دِينِهِم ومالِهم ، وعاهَدَهم على الحِمايةِ ما داموا يُخلصون المُجْتَمعِ الذى يَعيشون فيه ، وقد شَمِلت هَذه المُعاهَدَةُ مَبادِئَ هامة وهى : وَحْدَةُ الأمةِ المُسلمةِ من غيْرِ تَفرقةٍ ، والمساواةُ فى الحقوق والواجبات ، واشتراكُ المجتمع كلّه فى تقريرِ العَلاقاتِ مع أعدائِها ، فالمُسلِمُ أخُو المسلِمُ لا يَظلمُه ، هذا مع مُكافَحَةِ الخارجينَ على الدولةِ والِامْتِناعِ عن نُصْرَتِهم .

وَلِغَيْرِ المسلمين دينهُم ومالُهم ، لا يُجْبَرون على دينٍ غيرِ دينِهم ، ولكنْ عليهم أن يُسهِموا فى نفقاتِ الدولة ، وعليهم أن يتعاونوا معها على منعِ أىِّ خَطر ، وعلى غير المسلمين أن يَشتركُوا فى نَفقاتِ القتال ، وعلى المُسلمين أن يمتنعوا عن حِمايةِ الأعْدَاء ، هذا مع حُريةِ الانتقالِ فى داخلِ الدّولة ، وإلى خارجِها .

وإذا كانت مَصلحةُ الأمةِ فى الصُّلح وجَبَ على جميعِ أبنائِها — مسلمين وغير مسلمين — أن يَقْبَلُوا الصلح .

وبارك الرسولُ صلى الله عليه وسلم هَذهِ الرّابطة القويّةَ التى جعَلت منهم مُجتَمَعَ الإخاء والوَفاء .

وتحت لِواءِ الرسولِ صلى الله عليه وسلم راح هذا المُجتمعُ الجديدُ يَنشُرُ النورَ ، ويبذر بذورَ الهُدَى والرشادِ والسلام ، حتى زال الشِّركُ من الجزيرةِ العربية ، وحَلَّت عبادةُ اللهِ الواحدِ القهّار ، بَدَلًا من عبادةِ الأحجارِ والأصْنام .

ومن هذا المُجتمِع المُتعاونِ المُتضامِن انطَلقت الدّعوةُ الإسلاميةُ ، وتحرَّرت من قُيودِها ، لِتُحقِّقَ للمجتمِع الإسلامىِّ كلَّ أسبابِ القُوة ، وَليحمِىَ المُستَضعَفين والعبيدَ من ظُلمِ السادةِ الأقوياء ، وليَحْمِىَ القبائلَ العربيةَ من سَيْطَرةِ الرُّومِ والفُرس ، حتى لا يكونَ فى الجزيرةِ العربيةِ مَوضِعٌ لغَاصِبٍ أو دَخيل ، ولتَرتَفِعَ مَشاعِلُ الهدايةِ والنُّور والحرية .

وفى وسطِ الجزيرةِ العربيةِ عاشت — فى الدنيا لأولِ مرة — عاصمةُ دولةٍ لا تَعرِف الحِقْدَ ، ولا البغىَ ، ولا الفُجورَ ، ولا القسوةَ .

ثم تطورتِ الدولة بعد ذلك ، فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم الوُلاةَ إلى جميع أنحاء الجزيرة ، يجْمَعون الزكاةَ ويَصرِفونها في مَصارفِ التّضامن الاجتماعيّ ، فلكلّ فقيرٍ حاجتُهُ ، ولكلُ متزوجٍ إعانتُهُ ، ولكلِّ أعمَى قائدُهُ ، ولكل مَدين سدّادُ ديونِهِ ، ولكلّ مَن يموتُ فقيرا حِمايةُ أسرتهِ بعدَ وفاتِه ، وحُقِنَتِ الدماء ، وحُفِظَت الأعرَاض ، وتحرّر الناسُ من الجهل والخوفِ والخُرَافة .

قتال المشركين

ظَلَّ نبيُّ الإسلام ينشرُ دعوتَه ، مُعْتَمِدا على الإقناع ، صابرًا على ما يَلْقاه من أذَى المُشرِكين من قُريشٍ ، ومن كلِّ اعتداء واضْطِهادٍ حتى اضْطُرَّ النبيُّ إلى أن يَترُكَ وَطنَه ، ويُهاجِرَ إلى يثرب « المدينة » . فهَلْ سَلِمَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم وأتباعُه من أذَى قريشٍ بعد هذا كلِّه ؟ كلا ، لقد وَجَدَ الحقدَ بين المُشرِكين من قُرَيش ويهود يَثرِب (المدينة) وخَيْبر ، الذين كَوَّنوا جَبهةً واحدةً مُتعاوِنةً على حَربِ المُسلِمين .

لم يَعْترِف حِزبُ المُشرِكين واليهودِ بحقِّ المُسلِمين فى حُرِّيةِ العِبادَة ، وأَعلنُوا عَداءَهم لهم ، ولم يَكُنْ أمام المُسلِمين سَبيلٌ إلاَّ الدِّفاعُ والقِتال ، وقد دَعاهُم القرآنُ إلى النِّضالِ والجهاد ، دِفاعًا عن أنفسِهم وعن دِينِهم ، فقال تعالى :

« وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ ، ولا تَعْتَدُوا ، إنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ، واقْتُلُوهم حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهم ، وأَخْرِجُوهم مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ »[1] .

« فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِين يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بالآخِرَةِ ، وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيماً »[2] .

وإليك صُوراً من وَقفاتِ المُسلِمين دفاعا عن أنفُسِهم ، بقِيادةِ نَبيِّهم الكريم ،

---

(١) سورة البقرة .

(٢) سورة النساء .

تنطلقُ بما له من قُدرةٍ كبيرةٍ كقائدٍ مُحارِب ، وأولى هذه الوقفاتِ والغزواتِ غَزوةُ بَدرٍ :

لم يَكُن المُسلِمون يطلُبون الحربَ في « بدر » رَغبةً في الحرب ، إنما كان غرضُهم إرغامَ قُريشٍ أن تأخُذَ لِقوافِلِها التِّجاريةِ بين مَكةَ والشامِ طريقًا آخَر ، حتى يَطمئِنَّ المُسلِمون إلى عَدمِ مُفاجأةِ قريشٍ وهجومِها على المدينة . وقد أعَدَّ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلم حَملةً مكونةً من ثَلاثمائةِ رجلٍ لهذا الغرض .

ورَأت قريشٌ أن تُجهِّزَ جَيشًا من عَددٍ كبيرٍ من الرجال ، وعلى رأسِهم « أبُو سفيان بنُ حربٍ » دِفاعًا عن قَوافِلِهم ، وقد أصَرَّ أبُو جَهلٍ بنُ هِشامٍ عَدوُّ اللهِ على أن يَذهَبَ الجيش إلى بَدْرٍ ، ويُعسكِرَ فيها ويَنحرَ الذبائحَ ، ويَشربَ الخمْرَ ، ويأكُلَ الطعامَ ، ويُغنِّي ويطْرِبَ ، حتى يَسمعَ العربُ بما تَفعلُه قُرَيش .

لهذا وَجدَ النبيُّ أن الحربَ بَينه وبين قُريشٍ وَاقِعةٌ لا مَحالةَ ، فأرسَلَ عَليًّا والزُّبَيْرَ بن العَوَّام ، ليتَعرَّفا على تحرُّكاتِ العَدُوِّ ، فَعثَرا على شابَّيْنِ أتيا في طَلبِ المـاء . فاقْتادَهُما عليٌّ والزبيرُ أسِيرَيْن إلى النبيِّ فسألَهُما قائلا :

— كم تَذبحون من الإبِلِ كلَّ يومٍ ؟

فقالا : تِسعًا أو عَشرًا .

فعرَف النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن عَددَ جَيشِ قُريشٍ ما بين التِّسعِمائةِ والألف .

والقِصةُ التَّاليةُ تَشهَدُ بِحُسنِ تَدبيرِ النبيِّ لأُمورِ الحرب ورَغْبتِه في الانتفاعِ بنَصائحِ المُجرِّبِين من صَحابتِه .

كان المسلمون ينزلون بمكانٍ من بدرٍ ، فجاء الحُباب بنُ المُنذِر ، وكان ممن لهم خبرةٌ بالقتال والأماكن ، وقال للنبيِّ صلّى الله عليه وسلم :

— أأنزلتَ الرجالَ هذا المكانَ عن وَحيٍ من الله تعالى أم هو الرأيُ والحربُ والمكيدَةُ ؟

فقال النبي صلّى الله عليه وسلّم :

— بل هو الرأيُ والحربُ والمكيدَة .

فقال الحُبابُ بنُ المنذِر : يا رسولَ اللهِ فإن هذا ليس بمنزلٍ ، فانهض لناس حتى تأتِي إلى أقرب ماء من القومِ فننزِلَ فيه ، ثم نبنِيَ عليه حوضاً ، ونملأه ماء ، ثم نقاتِلَ القوم فنشربَ منه ، وهم لا يشربُون .

وأخذَ النبيُّ بهذا الرأيِ ، إذ كان من عادتِه أن يستشيرَ أصحابَه وأهلَ الرأى فى أمورِ الحربِ والدُّنيا ، وهذا ما يُشبِه مجلسَ الحربِ الآن .

وَوَضعَ النبيُّ صلّى اللهُ عليه وسلّم تخطيطاً شامِلا لِلقتالِ ، ومن ذلك تجويعُ العَدوّ ، وإضعافُ رُوحِه واستطلاعُ حركاتِه ، وجمعُ أخبارِه .

ولما وَجَد المُشرِكون أن الماءَ فى أيدِى المُسلِمين أرادُوا أن يُنازِعُوهم عليه . وعِندئذٍ بدأت معركةُ بدر التى قُتِل فيها من قُريشٍ سبعون رَجلا وأُسِر عددٌ كبير ، وكانت خسارةُ المشرِكين كبيرةً جدا ، وكان بين القتلَى أعدَى أعداء الإسلامِ — أبو جهلِ بن هشام — وفى هذه الحرب قال الله تبارك وتعالى :

« وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ » .

ويقول تعالى :

« فَلَمْ تَقْتُلُوهم وَلَـكِنَّ اللهَ قَتَلَهُم » . (سورة الأنفال)

غَزوةُ أُحُد :

وبعد هزيمة بَدْر قَدَّمت قريشٌ كلَّ ما تملكُ من مالٍ وقوّة وعَتادٍ وَرِجالٍ لِلغزوةِ القَادِمَةِ ، لتُعِيدَ مَكانتَها التى ضاعت ، وشَرفَها الذى تحطَّم ، فقد استطاعَت أن تجمعَ ثلاثةَ آلافِ مُقاتلٍ ، وأرسَلتْهم لِمُحاصرةِ « المدينة » بِقيادةِ أبى سُفيان .

وبَينما كان المُزارِعون من أهلِ المَدينةِ يعملون فى مَزارِعِهم القريبةِ من المدينة ، رَأَوْا جَيشا مُنتشِرا من قُريشٍ وفُرسَانِها .

وعَرَفَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّم الخبر ، وأدرَكَ أن الخطرَ يقترِبُ من المدينة ، فَدعا جمْعاً من صَحابتِه المُهاجرين والأنصارِ للتَّشاوُرِ فى هذا الخطرِ القادمِ ، وقد أجمعَ رأىُ الأغلبيةِ — وكانوا من الشَّبابِ المُتحمِّسِ — على ضَرورةِ الخروج لِمُقابلةِ العدوِّ .

وخُضوعاً لرأيِ الأغلبيةِ تَقلَّد النبيُّ سَيفَه ، وخَرج مع المُؤمِنين ، وكان عَددُهم أقلَّ من ألفِ مُقاتل ، وكان على الرَّسولِ أن يُقابِلَ بهذا العددِ القليلِ جَيشا عُدَّتُه أربعةُ أمثالِ مَنْ معه من الرِّجال ، إلا أن قوةَ الإيمانِ ورُوحَ الشجاعةِ كانت تَملأُ قلوبَ هذا العددِ القليل .

واختار نبيُّ الإسلامِ مكاناً عالياً لمعسكرِه ، يُشرِفُ منه على جُندِ قُرَيش ، وجَعَل جَبَلَ « أُحُد » وراء ظَهرِه لِيَكونَ حِصنا حَاميا لجنودِه من الخلف . وقد لاحظ الرسولُ أن هذا الجبلَ يتَوسَّطُه مَمرٌّ ضَيِّقٌ ، يُمكِنُ أن يَدخُلَ منه العَدوُّ ، ليلتَفَّ حولَ جَيشِ المُسلمين ، فاختارَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّم

خمسين رجلا من المحاربينَ الأقوياء لِيمنعَ جَيشَ المُشركين من قريش أن يُهاجموا المُسلِمين من هذا الممَرّ .

وأراد النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلّم أن يُشجِّعَ رِجالَه ، فرفعَ سَيفَه قائلا :

— مَن يأخذُ هذا السَّيفَ بِحقِّه ؟

فتقَدَّمَ « أبو دُجانة » ، وقال :

— وما حَقُّه يا رسولَ الله ؟

فقال النبيّ :

— أن تَضربَ به في العدوِّ حتى يَنحَنِيَ .

فقال « أبو دُجانة » :

— أنا آخُذُه بحقِّه .

ولما دارت الحربُ أخذ « أبو دجانة » يَضربُ يَميناً وشِمالاً ، وكانت فُرسانُ قريش تفرُّ أمامَه ، وباقِي المُسلِمين يَندفِعون بحماسٍ للقِتال ، حتى ظَهَرت بشائرُ نَصرِ المُؤمنين . وبدأت قريشٌ تُحاوِلُ الهَرَب .

ولما شاهَدَ جنودُ المُسلِمين الذين كانوا يَحرُسُون مَمرَّ جَبَلِ أُحد ، ما حلّ بجَيشِ المُشرِكين من اضطِراب ، أخذوا يَصِيحون فَرَحا ، ويُهلِّلون ويُكبِّرون ، واندَفعوا لجَمعِ الغَنائم ، ناسِين أوامِرَ الرَّسولِ بِعَدمِ تَركِ هذا المَمرّ .

ولاحَظ بعضُ المُشرِكين أن المَمرّ قد أصبحَ خالياً ، وأن أغلَبَ رجالِه تركُوه ، فاندَفَعوا نَحوه ودَخَلوا منه ، لمُحاصَرةِ المُسلِمين ومُفاجأتِهم ، فاضطَربت صُفُوفُ المُسلِمين واختَلطَ عليهم الأمرُ ، فقُتِلَ كثيرٌ منهم ، وفقَدوا النَّصرَ الذي حَقَّقُوه في بِدايةِ المَعرَكةِ التي كانت في جانِبِهم وصالِحِهم .

ولَوْلَا ثَبَاتُ الرَّسولِ صلّى اللهُ عليه وسلّمَ مع جَماعةٍ من أصْحَابِه المُمْتَازِينَ والمَعْرُوفِينَ بِشَجاعَتِهم ، لَانتَصَرَ المُشرِكونَ انتِصارًا مُؤكّدًا ، وكانوا قد جاءوا لِلانْتِقامِ والأخذِ بالثَّأرِ ، ولِقَتْلِ النبيِّ نَفْسِه . ولَكِنْ خابَ رَجاؤُهم ، وضاع أمَلُهم ، وتوعّدوا النبيَّ صلى الله عليه وسلّمَ بحَرْب أُخرَى أقوَى وأشدَّ عُنْفا ، وعادوا لا لَهُمْ ، ولا عَلَيهم

غزوة الأحزاب أو غزوة الخندق :

« عَمِلَ اليَهودُ على إثارةِ قُرَيش ، واتّفقوا معها على أن يَنضمُّوا إليها إذا أشْعَلَت الحربَ على مُحمدٍ وأتباعِه .

وعَلِم النبيُّ بما خَطَّطَه اليَهُودُ مع قُرَيشٍ وغَيرِها من القبائلِ لمهاجَمة المدينة ، وعلم كذلك أن هؤلاءِ الأعْداء قد تجمّعوا فى عَشرةِ آلافِ مُقَاتِل ، وأدرك أنه لا يَستطِيعُ أن يُحارِبَهم وَجْها لوجْهٍ .

وكانت المَدِينةُ مُحاطةً من أكثرِ جهاتِها بالسُّدودِ والقِــلاعِ والبَساتين وغَيرِها ، ما عدا الجِهةَ الشّمالِية ، التى منها كان يُمكِنُ أن يَدخُلَ العَدوُّ .

جَمَع النبيُّ صلى اللهُ عليه وسَلَّم المسلمين ، وتَشاوروا فى الأمر ، وَاتَّفَقُوا على حفرِ خَنْدقٍ من هَذهِ الجِهَة .

ولما قَدِمَت قريشٌ وأنصارُها وَرَأَوُا الخندقَ أصابَتْهم الحَيْرةُ ، لأنهم لم يَكونُوا يَنتظِرون أن النبيَّ سَيُواجِهُهم بعَمَلٍ حربِيٍّ لم يَعرِفوه من قبلُ ، لذلك لجأتْ قريشٌ وأنصارُها وأحزابُها إلى الرَّمْيِ بالنِّبال ، وطَالَ بهمُ الوَقتُ من غَيرِ فائدة ، ومع أن المُسلِمين كانوا يَتألَّمون من هذا الحِصار ، إلا أنهم صَبَرُوا وكافَحُوا أعداءَهم بكل قوة .

وكان اللهُ مع الذين آمنوا ، لقد دبّر لهم مَن أوجد الخلافَ بين قريش واليهود ، وبين اليهودِ وباقي القبائل . وفضلا عن ذلك فإن الله تعالى أرسل على هذه الأحزابِ المُتآمِرَةِ على المسلمين رِيحًا عاصِفَةً ، أخذت تقلَعُ خيامَهم، وتقلبُ قدُورَهم ، وتُطفِئُ نارَهم ، وتُحدِثُ في آذانِهم صَفيرًا مُؤلِما ، فاضطربت جموعُهم ودبّت الفوضى في صُفوفهم ، ثُم اضطُروا إلى الرحيل عن المدينة ، لأنهم لم ينالوا خيرا ، ولم يَكْسِبُوا نصرا ، وكان الله حكيما ، فقد قامت هَذهِ الريح والمكيدةُ الحربيةُ ، بما لم تقُم به أسلحةُ المُسْلِمِين ، ولا شك أن هذا نصرٌ عظيمٌ من اللهِ تعالَى الذى يَنْصُرُ مَنْ يَنْصُرُه ، إن اللهَ لقوىٌ عزيزٌ .

وَقد ذَكَرَ اللهُ هذه القِصةَ في القرآنِ الكريمِ في سُورةِ الأحزاب ، حيث يقول تعالى :

« يا أيُّها الذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ ؛ إذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ ، فأرْسَلنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا ، وَجُنُودًا لم تَرَوْهَا ، وكانَ اللهُ بِمَا تَعْملُونَ بَصِيرًا ، إذْ جاءوكُمْ مِنْ فَوْقِكم ، وَمِنْ أسْفَلَ مِنْكُمْ ، وإذ زَاغَتِ[1] الأبْصَارُ[2] وبَلَغَتِ القُلُوبُ الحَنَاجِرَ ، وَتَظُنُّونَ باللهِ الظُنُونَا ، هُنَالِكَ[3] ابْتُلِيَ[4] المُؤمِنُونَ وزُلْزِلوا زِلْزَالاً شَدِيدًا » .

* * *

وفي غزْوَة حُنَين اغترّ بعضُ المسلمين بِكَثْرَتِهِم ، وقالوا : لنْ نُغْلَبَ اليوم من قِلَّة . ونسوا ربَّهم ، فأصَابهم الضّعف واشتدّ بهم الكَرْبُ ، وانهزَمُوا

---

(١) زاغت الابصار : اختلت نصارت لا تبصر من شدة الخوف .

(٢) بلغت القلوب الحناجر : كناية عن اضطراب القلوب عند الفزع .

(٣) هنالك : في هذا الوقت .

(٤) ابتلي المؤمنون : اختبرهم ليظهر القوى والضعيف والصادق والمنافق .

أول الأمر أمام الكافرين . وقد صوّر القرآن حالهم هذه أروع تصوير ، إذ يقول : « وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ ، فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا ، وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ، ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ *[1] » .

ولكن النبي صلى الله عليه وسلم ، وصادق المؤمنين بالله ، ثبتوا فاجتمع عليهم الجيش مرة أخرى ، وأتم الله بثباتهم ما يريد من نصر أوليائه وإعلاء كلمته .

« ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ، وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ[2] » .

---

(١) سورة التوبة : آية ٢٥ .　　(٢) سورة التوبة : آية ٢٦ .

صلح الحديبية وفتح مكة

وَجَدَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّم بعد خُروجِه من مَكَّةَ أن الاتِّفاقَ مع « قُرَيشٍ » ضعيفٌ ، ولهذا سَعَى لتوطيدِ سلمٍ بَيْنَه وبين مَكَّةَ بأن يَذهَبَ إلى الكعبةِ للحَج ، مع بعضِ رجالِه ، لينشرَ الدَّعْوةَ إلى دينِ الله ، وَهُمْ فى أمانٍ من الغَدْرِ بهم ، لأنهم فى الأشهُرِ الحُرُمِ [1] .

وفى سنة ٦ هجرية — ٦٢٨ ميلادية ، اجْتمع خارجَ المدينةِ ألفٌ وخَمْسُمِائة من حُجاجِ المسلِمين ، فى ثيابِ الإحْرام البيضاء ، وتَحرَّكوا إلى مَكَّة ، ونَصَبُوا خِيامَهم حَولَها ، وَانتظَر الرسولُ لِيَرَى : ماذا تَفعلُ « قُرَيش » ؟

أرسَلَت قُريشٌ مَن يُفاوضُ مُحمداً فى أن يَرجِعَ إلى المدينةِ هذا العام ، ويَعودَ فى العامِ التالِى فَيَحُجَّ إلى الكعبة ، وَانْتهت المُفاوَضاتُ بين الطَّرفَيْن بِعَقْدِ مُعاهَدةِ الحُدَيْبِيَةِ سنة ٦ هجرية — ٦٢٨ ميلادية .

فى هَذهِ المُعاهدةِ اتَّفق النبيُّ وقريشٌ على أن يعودَ محمدٌ وأتباعُه فَوْرا إلى « المدينة » ويُسمَحَ لهم بالرجوعِ فى العام التالِى للحج ، حيث تُترَكُ مكةُ لهم ثلاثة أيام يؤدون فيها مَناسِكَ الحج . وفى هذه الفترة يترك القُرَشِيُّون مكة ويُعَسْكِرُون خارج أسوارِها ، على أن يكون أتباعُ محمدٍ غَيْرَ مُسلَّحِين ، وعلى أن

---

(١) الأشهر الحرم : هى ذو القعدة والمحرم ورجب ، ووصفت بذلك ، لأن الله حرم فيها القتال على لسان إبراهيم وإسماعيل .

يدومَ هذا الصلحُ عَشرةَ أعوامٍ ، تجرِى فيها قوافلُ الطَّرَفَين فى أرضِ مَكةَ والمدينة ، على أن يُعادَ إلى مكةَ من يَلجأ إلى المدينةِ مُسلماً دُونَ مُوافقةِ أهله .

وكان من نتائجِ صُلح الحُدَيبيَة ازدِيادُ الدَّعوةِ إلى الإسلام وَانتشارُه بين العرب ، حتى تَبيَّن أن مَن دَخَل الإسلامَ فى السَّنتَين التَّاليتَين لهذا الصُّلحِ كانوا أكثرَ مِمن دَخلوا قبلَها ، وفى هذا دليلٌ قوىٌّ على بُطلانِ القَولِ بأن الإسلامَ قد انتَشَر بحدِّ السَّيف .

أمَّا سبَبُ الإقبالِ على الإسلام ، بَعد صُلحِ الحُدَيبيَة فيُمكِنُ تفسيرُه بأن الكثيرين من قريش اتَّصلوا بالمُسلمين ، وفَهِموا ما تَركَه الإسلام فى نُفوسِ أتباعِه من حُسنِ المُعامَلةِ وكَرمِ الأخلاقِ . وقَامَ بين الجميعِ نقاشٌ وحِوارٌ هادئٌ فَعرَفُوا مزايا الإسلام ، وبُعدِ أهلِه عن التَّعصُّبِ ، ومَيلِهم إلى الأخوةِ والصَّداقةِ ومَحبَّةِ الناس ، وعَرَفوا فى النبىِّ جمالَ الخُلُق ، وطَهارةَ النَّفس ، وما فيه من وَداعةٍ وطِيبةٍ ، فأخذوا يَدخلون فى دينِ اللهِ أفواجا .

فتح مكة

وبَدأَت قُريشٌ تَنقُضُ صُلحَ الحُدَيْبِيَةِ ، ولا تُنفِّذُ شُروطَها ، وَابتدأَ حُلفاءُ قُريشٍ يَعتَدُون على قَبيلةٍ من حُلفاءِ النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم ، فكان ذلك حجةً قويةً له ، لِيدخُلَ مَكةَ بِالقُوَّة .

أحاط النبيُّ قُوّادَه عِلمًا بأمْرِ دُخولِ مَكةَ بِالكِتْمانِ ، فَأُغلِقَت كلُّ الطرقِ المُوصِّلةِ إلى مكة ، وَمُنِعَت قَبائلُ البَدوِ من التَّحرُّكِ بِحُرِّيةٍ في الصحراء ، حتى لا تَعلَمَ قُريشٌ شَيئا عمّا يُرادُ بها ويُدَبَّرُ لها .

وتَحركَ جَيشُ المُسلمين في يناير سنة (٧ هجرية — ٦٣٠ ميلادية) وكان قد بَلغ عشرةَ آلافِ مُقاتل ، بكاملِ العُدَّةِ والسِّلاحِ ، وَوُلِّيَ الزُّبَيرُ بنُ العَوّامِ قِيادةَ المُقدمة ، يُعاونُه مِائتانِ من الفُرسان ، والرَّسولُ في قَلبِ هذا الجيش ، وتَولّى عمرُ بنُ الخطاب تَنظيمَ سَيْرِهِ خِلالَ مَسالِكَ غيرِ مَألوفةٍ .

وعندما اقتربَ النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم من مَكةَ قَسَّمَ جَيشَه أربعةَ أقسام :

قِسمٌ يَقودُه « الزُّبَيرُ بنُ العَوّام » ليَستَوْلِيَ على أعلَى مَكَّةَ .

وقسمٌ يقودُه « خالدُ بنُ الوليد » لِيَستَوْلِيَ على أسفلِ مَكةَ .

وقسمٌ يَقودُه « سَعْدُ بنُ عُبادَة » لِيَستَوْلِيَ على غَربِيِّ مَكةَ .

وقسمٌ يَقودُه « أبو عُبَيْدَةَ بن الجرّاح » لِيدخُلَ مَكةَ من الشرقِ .

وأخيرا حَطَّ الجيشُ ونَزَلَ بجوارِ مَكةَ تَبعا لِلنِّظامِ المُتَّفَقِ عليه ، وأمر عُمرُ بنُ الخطابِ بإشعالِ النِّيران ، فَاشْتَعلَت منها أُلوف ، ورآها أهلُ مَكَّةَ ،

فَحلّ بهم الخوفُ وَالفزع ، وأرسلوا أبا سُفْيانَ لِمَعْرِفةِ الحقيقةِ ، فالْتَقى بالمسلمين فنَصَحوهُ بِالتّسليم ، قَبل أن تُدَمَّرَ مَكّة .

وفى الصباح أعلن أبو سُفْيان بين يَدَى النبيّ إسْلامَه ، وأنه سَيُسلِّمُ مَكّة ، فَفَرِح النبيُّ صلى الله عليه وسلم وقال :

— هَا هِيَ ذى مَكّةُ تُسلِّمُ من غَيرِ أن تُسفَك فيها دِمَاء ، ومن غَير أن يَقْتَتِلَ الإخْوةُ وأبناء العَمّ .

وصاح أبُو سُفْيانَ فى مَكة وقال :

— من دَخل دَاره وأغلق عليه بابه فهو آمِنٌ . . . ومن دَخل دارَ أبِى سُفيانَ فهو آمِنٌ . . . من دَخَل المسجِدَ فهو آمِنٌ .

وذَهَب محمد صلى الله عليه وسلم بعد ذلك إلى الكعبةِ لِلطّواف فيها ، وعِندما رَأى الأصنامَ دَعا أتباعَه بِتَحْطيمِها وهو يتلو قولَ اللهِ تعالى :

« وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وزَهَقَ الباطِلُ إن الباطِلَ كان زَهوقا » .

لماذا انتشر الإسلام

وانتشر الإسلام ، ودَخلت الناسُ فيه جماعات وشُعوبا ، ولا يزالُ يَمتدُّ على الأرضِ على مَرِّ الزمان وهو يُقدم للإنسانيةِ كلِّها خيرَ المبادئ وأحسنِ النُّظم ، بعد أن منحها خير دُسْتور لحياة سليمة ناجحة عادلة .

فالإسلام يدعو إلى الإيمان بالله وَحْدَه ، لا شَريكَ له ، واضعاً أمام الناس هذه الحقيقة الخالدة مُسْتَمدَّةً من قول الله تعالى :

« لَوكان فيهما آلهةٌ إلا اللهُ لفَسَدتا »[1]

والإنسان بطبيعته يَسْكُن إلى المرأة ، ليَتزَوَّجَها ويحقق معها الاسرة ، وبها تتم العِشرة والرَّاحة والاِستِقْرار . ولهذا دعا الإسلام إلى الزَّواجِ ، ولم يَرضَ التَّرهب[2] تحقيقا لقول الله عز وجَلَّ : وَمِن آياتِه أن خَلَق لكم من أنفُسِكم أزواجًا لتَسكُنوا إليها ، وجَعَل بَينَكم مَودَّةً ورَحْمَةً » .

والإنسانُ بِطَبيعتِه يُحبُّ الكَسبَ وتَملُّكَ الأشياء ، وقد أباحَهما الله ، بِشَرط أن يكونَ الكسبُ حَلَالا طيِّباً . قال وهو أصدق القائلين :

« يأيها الذين آمنوا : أَنفِقوا من طَيِّباتِ ما كَسَبْتُم . ومِما أخرجْنا لكم من الأرض » .

وقال محمد صلى الله عليه وسلم :

« نعمَ المالُ الصالحُ لِلعَبدِ الصالِح »

---

(١) سورة الأنبياء .

(٢) الترهب : يصبح راهبا ، لايتزوج ، يهب نفسه للعبادة .

ونهى عن الكسبِ الحرام ، كالربا ، لأنه كسبٌ بلا عمل ، ولأن فيه استغلالاً لحاجة الناس ، وحرّم الرّشوةَ و« السّمسرة » و الاغتصاب .

والإنسان بفطرته يتطلّعُ إلى معرفةِ المجهُول ، فترى الطفلَ يسألُ أباه أو معلّمَه عن كلِّ ما تقع عليه عينهُ ، ولهذا دعا الإسلامُ إلى التأمل فى الأرضِ والسماء لإدراكِ ما فيهما من أسرار ، وحثّ على طلبِ العِلم من المهدِ إلى اللّحد[1] ، والسفرِ من أجلِه إلى أقصى الأرض .

والإنسانُ بطبيعتِه يُحبُّ الحريه ، وقد حرَص الإسلامُ على حمايةِ حُريةِ الأفرادِ والجماعات ، بما وضَعَه من نُظُمٍ وعُقوبات ، حتى لا يعتدِيَ أحدٌ على حريةِ الآخرِين ، وقد حفِظ المسلمون كلمةَ عُمَر بنِ الخَطّابِ لعمرِو بنِ العاص : « متى استَعْبدْتُم الناسَ وقد ولَدَتْهُم أمهاتهُم أحرارا » .

وجَعَلَ الإسلامُ كفّارةَ كثيرٍ من الذُّنوبِ عِتقَ الرِّقاب .

وجَعل من مَصادرِ الزّكاةِ تحريرَ العَبيد .

والإنسانُ بفطرته يَكرهُ الإرهاق ، ولهذا جاء الإسلامُ يدعُو إلى الرفق بالنفس فى العبادة أو غيرها ، حِرْصا على سلامتها ومن السّأمِ المؤدى إلى فقدان الشعور بلذة القيامِ بالواجِبات .

يقول تعالى « لا يكلّفُ اللهُ نفْساً إلا وُسْعَها »

ويقول الرسول عليه السلام « إن هذا الدين متين ، فأوْغِلْ فيه برفق ، فإنّ المُنبتّ[2] لا أرضاً قطعَ ، ولا ظَهراً أبقى » .

---

(١) اللحد : القبر .

(٢) المنبت : المتشدد الذى يدفع دابته ويلح عليها حتى يقضى عليها فيخسرها ولم يصل إلى هدفه .

وقد أجاز اللهُ للمرضى والمُسافِرين أن يُفطِروا في شهر رمضان ، وأن يَتيَمَّمُوا إن لم يجدوا الماء للوضُوء .

والإنسانُ مَطبُوع على مُقاومةِ المُعتدِي — غَريزَةٌ فيه — ولهذا دَعَا القرآن إلى القُوَّة بقوله :

« وأعِدُّوا لَهُمْ مَا استَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِباطِ الخَيْلِ تُرْهِبُون به عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُم[1] » .

وأباح الله دَفْع الاعْتِدَاء بمثله . قال تعالى : « فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيكُمْ . .[2] » ، لكنه لم يرْضَ البَدْء بالعُدْوان « وَقَاتِلُوا في سَبِيل اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلونَكُم ، ولا تَعْتَدُوا إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ المُعْتَدِينَ » .

وجاء الإسلامُ صَالحًا لكل زَمَان ومكان ، موافقا لطَبِيعةِ الإنسان وغَرَائِزِه ، لأنه جاء من عند الله خَالقِ كُلّ شيء في الأرضِ والسماء ، فهو أعْلَمُ بِخَلْقِه ، وما يصلح لهم . وفضلا عن ذلك فقد جاء بأصولٍ وقواعدَ وأحكامٍ عامةٍ وخاصةٍ تَشملُ جميعَ جَوَانِبِ الحياة من عقائدَ وآدابٍ ومُعامَلاتٍ وعُقوباتٍ ، ونُظمٍ للأسرةِ وللحكومةِ والدولةِ والعالَمِ كلِّه ، مؤكدا أنه لا تمييزَ لأحدٍ على أحدٍ ، بِسببِ وَطنِه أو جنْسه أو لوْنه أو نَسبِه . وفي هذا يقول نبيُّ الإسلام عليه الصلاةُ والسلام في خُطبةِ الوَداع :

« أيها الناس إن دينَكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كُلُّكم لآدم ، وآدمُ من تُرَاب ، ليس لعربيٍّ فضلٌ على أعجميٍّ إلاَّ بالتَّقوَى » .

---

(١) سورة الأنفال آية ٦٠ . (٢) سورة البقرة من آية ١٩٤ .

رقم الإيداع ٥٦٠٣ / ديسمبر ١٩٧٤

عظمة الرسول

أدبه وشخصيته وإنسانيته

محطم الأصنام والأوهام — منقذ الأرقاء — محرر المرأة

ومنقذ الإنسانية

تأليف

دكتور عز الدين فراج

أستاذ بجامعة القاهرة

مطبعة المجد
٦٠٢ شارع الرئيس عبد السلام عارف — عابدين

رقم الإيداع بدار الكتب ٥٥٦٠ لسنة ١٩٧٤

نبيُّ الإسلام

أدبُه وشخصيتُه وإنسانيتُه

كان النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم هو المثَل الأعْلَى للإنسان الفاضل ، أدّبه ربُّه فأحسنَ تأديبَه ، ليكونَ خيرَ قُدوة للناس ، وليكونَ نوراً يَهديهم إلى سَواءِ السَّبيل[1] ، وقد مَدَحه اللهُ بقوله تعالى : « وإنك لعَلَى خُلُقٍ عَظيم » .

لقد اختَاره اللهُ ليحمِل الدّعوةَ إلى الإسـلام ، اختاره ليَدعُوَ الناسَ إلى عبادةِ اللهِ مُخلِصين له الدِّينَ حُنَفَاءَ ولِـكَيْ يُقيموا الصلاةَ ويُؤتُوا الزكاة ، وإلى عاداتٍ طَيِّبة غيرِ ما كانوا يعتادُون ، وإلى خُلُقٍ كريمٍ غيرِ ما كانوا يألَفون[2] .

وَطبيعيٌّ أن يختارَ اللهُ نبيًّا امتازَ بالعَزْم الشّديد ، والخُلقِ الرَّشيد ، والعَقْلِ السَّديد .

كان أرحَمَ النَّاسِ بالنَّاس ، وخيرَ الناسِ للناسِ ، وأنفعَ الناسِ للناس .

---

(١) سواء السبيل = الطريق المستقيم المعتدل الذى لاعوج فيه .

(٢) يألفون : يعتادون .

كان أكثرَهم كَرَمًا ، وأصدَقَهم حَديثًا ، وأوسَعَهم صَدْرًا ، وأحسنَهم عِشْرَة .

كان لا يحتقِرُ مِسكينًا لفقرِه ، ولا يَهابُ مَلِكًا لِمُلكِه .

كان أبعدَ الناسِ غَضَبًا ، وأقربَهم إلى العفوِ والتَّسَامُح ، ما دَام في ذلك رِضَا اللهِ .

كان أعدلَ الناس ، وأعفَّ الناس ، وكان أكثرَهم تواضُعًا ، وعَطْفًا على البائسين والمَحْرُومين .

كان يُكرِمُ أهلَ العلمِ والفضلِ ، وكان يَصِلُ ذوى رَحِمِه ، من غير أن يُفضِّلَهم عَلَى مَن هو أفضَلُ منهم .

وظَلَّ النَّبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم مُتواضعا طُولَ حَياتِه ، لم تُغيِّرهُ الأيامُ ، كان مُتَواضعا فى ضَعْفِه وَانتِصَارِه ، وكان مُتواضِعا عندما كانَ وَحيدا ، وحينما أصبحَ سيِّدَ العرب بالحقِّ والعَدل ، وعندما تَجمَّعَ حَولَه الأَنْصَارُ والأَتباعُ الأَقوياء .

فعندما هُزِمَت أَمامَه جُيوشُ قُريشٍ التى حَاربتْه نحوًا من عِشْرين عامًا ، ودَخَل مَكَّةَ فاتحًا ، سَأَلهم ما تَظُنُّون أَنِّى فاعلٌ بكُم ؟ قالوا : خيرا ، أَخٌ كريمٌ وابنُ أخٍ كريم ، فردَّ عليهم بِعفوٍ شَاملٍ وكَرمٍ نادِرٍ وقال :

اذهَبوا فأنتم الطُّلَقاء .

وهَا هُو ذا فى مَجلسِه ، وقد أَقبل عليه أعرابىٌّ وهو يرتَعِدُ خَوفا ، فيقولُ له الرّسول :

هوّن عليك يا أخى ، فإنما أنا ابنُ امرأةٍ من قُريشٍ كانت تأكلُ القَدِيد[1] .

وظَلّ رسولُ الله يَستمِعُ إلى العبدِ والأَرْمَلةِ والعَجوزِ والمِسْكين ، ويَقِفُ فى الطَّريق لكلِّ مَن يُصافِحُه ، يَستمِعُ إليه وإلى مُشكِلَاته ، وكأنه الأبُ الرّحيم ، والأخُ الحبيبُ ، نَسِىَ كلَّ مافعله أهلُ مَكّةَ من اضطِهادٍ وتَعذيبٍ له ولأتباعِه .

* * *

وكان زاهداً فى مَسكنِه ومأكلِه ومَشربِه ومَلبَسِه وسائرِ أمورِه وأحوالِه ، فكان طعامُه عادةً الخبز والماء ، وكثيراً ما تتابعت الشهورُ ولم تُوقَدْ بدارِه نار ، فهل بعد ذلك مَكْرُمةٌ ومفخَرة ؟ فحبّذا محمدٌ من رجلٍ مُتقشِّف ، خَشِنِ المَلبس والمأكل ، مُجتهِدٍ فى الله ، دائبٍ فى نشرِ دينِ الله ، غيرِ طامحٍ إلى مايَطمحُ اليه غيرُه من رُتبةٍ أو دَولةٍ أو سلطان .

---

(١) القديد : اللحم المقدد

ولو كان غيرَ ذلك لما استطاع أن يُلاقِيَ من العرب الغِلاظِ احترا،
وإجلالا ؛ ولما استطاع أن يَقودَهم ويُعاشِرَهم مُعظمَ وقتِه ، وهم ملتفون
حولَه ، يُقاتِلون بين يَديْه ويُجاهِدون فى اللهِ حقّ جهادِه .

لقد كان فى قلوب هؤلاء العرب جفاءٌ وقَسْوةٌ ، وكان من
الصَّعبِ قيادتهُم وتوجيهُهم ، لهذا كان مَن يَقدِرُ على ترويضِهم
وإخضاعِهم بَطلا عظيما .

ولولا ما وَجدُوا فيه من النُّبلِ والفَضل ، لَما خَضَعوا لإرادَتِه ، ولَما
انقادُوا لقيادتِه .

كان إذا غاب الرجلُ من أصحابه ثلاثةَ أيامٍ سأل عنه ، فإن كان
غائبا دعَا له ، وإن كان مريضا زاره .

وكان إذا وَدَّع رجلا أخذَ بِيدِهِ ، فلاَ يدَعُها حتى يكونَ الرجل
هو الذى يَدعُ يَدَه . وكان لاَيرُدُّ أحدا سأله ، بل يُعطِيه إن كان عنده
وإلا وَعَده .

وذاتَ مَرةٍ جاءت إليه امْرَأَةٌ من العَـرَب ، ومعها بُردَةٌ
وقالت :

يا رسولَ اللهِ أكسُوكَ هذه البُردَةَ فأخَذَها النبيُ صلّى الله عَليه

وَسَلَّمَ فلبسَها ، فرَآهَا رَجُلٌ عَلَيهِ ، فقَالَ مَا أحسَنَ هٰذِهِ البُردَةَ !
فَأَعطِنِي إِيَّاهَا يارَسُولَ اللهِ .

فَقَالَ : نَعَم ، وَأَعطاهُ الرَّسولُ البُردَةَ ، مَعَ أَنَّهُ كَانَ فِى حاجَةٍ شَديدَةٍ إِلَيهَا . وَلَمَّا قَامَ المصطَفَى لامَ أَصحَابُهُ هذَا السَّائِلَ ، وَقَالُوا لَهُ : إِنَّكَ تَعلَمُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ مُحتَاجٌ إِلَيهَا ، وَأَنَّهُ إِذَا سُئِلَ عَنْ شَيءٍ لَا يَمنَعُهُ .

وَذَاتَ يَوْمٍ أَعطَتهُ امرَأَةٌ ثَوبًا كان فى شِدَّةِ الْحَاجَةِ إِلَيهِ ، وَبَعدَ قَليلٍ طَلَبَ إِلَيهِ أَحَدُ النَّاسِ شَيئًا يَصلُحُ لِأَنْ يَكُونَ كَفَنًا لِمَيِّتٍ ، فَأَعطَاهُ ذٰلِكَ الثَّوب .

وكَانَ لا يتَكَلَّمُ فى غيرِ حاجَة ، وهوَ القائل : « وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ واليَوْمِ الآخِرِ فَليَقُلْ خَيْرًا ، أَو ليصمُتْ » : وكَانَ لا يتدَخَّلُ بالكَلامِ فِيما لا يُهِمُّه . وهو القائل : « مِنْ حُسْنِ إِسْلامِ المَرْء ، تَرْكُه مَالا يَعنِيه » .

وكَانَ لا يَعبِسُ فى وَجْه مُحَدِّثِه ، ولا يتركه إِلَّا إِذَا أَقنعَه ، وأَرْضَى نَفسَهُ . وكَانَ يُخاطِبُ كُلَّ شَخصٍ على قَدْرِ فَهْمه وخِبْرَتِه .

وكَان يَسُرُّ نفسَ مُحدِثِه ، ويُبَشِّرُه دائمًا بالْخَيْرِ . قال عليه الصلاة والسلامُ : « بَشِّرُوا ولا تُنفِّرُوا » .

وكَان حلوَ الحديث ، لا يُؤذى أحدًا بكلمة جَارِحةٍ ، حتى ولوْ كَان منْ أعدائهِ . وقد دَعَانا إلى أنْ نـكلِّمَ النَّاس بِكَلام طَيِّب ، فقال : « الـكلمَة الطيِّبَة صَدَقةٌ » .

كَانَ إذا تـكلَّمَ استَمَعَ إليهِ الجميعُ فى صَمتٍ وهُدوء ، وإذا سَكَتَ تَـكلَّمُوا ، وكَانَ أحيانًا يَمْزَحُ ولا يقولُ إلا حَقًّا .

كَانَ يُقْبِلُ على مُحَدِّثِهِ ، ويُصْغِى إليْه بوجهٍ باشٍّ ، ونَفْسٍ مُتفتِّحَة وهوَ القائلُ : « إنَّـكمْ لَنْ تَسَعُوا النَّاسَ بأَمْوَالِـكُمْ ، وإنَّمَا يَسَعُهُمْ مِنْكُمْ بَسْطُ الوَجْه وحُسْنُ الْخُلُق » .

وكَانَ يستمعُ فى تواضُعٍ ظَاهر ، وحِلمٍ جَمٍّ ، لا يتعجَّلُ مُحَدِّثه ، ولا يَقْطَعُ عليه حديثه .

دَخل نَفرٌ على زَيدِ بنِ ثابت ، فقالوا له : حدِّثْنا أحاديثَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، قال : ماذا أُحَدِّثـكم ؟ كنتُ جارَه فـكان إذا نَزَلَ عليه الوحىُ بَعث إلىَّ فـكتبتُه له ، فـكُنَّا إذا ذَكَرْنَا الدنيا ذكرها معنا ، وإذا ذَكَرْنَا الآخرةَ ذَكَرها معنا ، وإذا ذَكَرْنا الطعام ذَكره معنا ، فـكل هذا أُحدِّثـكم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . كان يَقُوم من الليل حتى تورَّمت قَدَماه .

نبيّ الإسلام

مُحطِّمُ الأصنامِ

كانت أصنامُ العربِ قبل الإسلامِ مَعبودةً كلَّ العبادة ، مُقدسةً كلَّ التقْديسِ ، مُحترمةً كلَّ الاحترام .

كانوا يَركعون لها ويَسجُدون ، ويُقدِّمون لها القرابين ، ويذْبحون لها الذّبائح ، ويَحرِقون حولَها البخور ، مُعتقدين أنها تمنحُ الأرزاقَ ، وتجلبُ الجاهَ والسُّلطان ، وتمنعُ الأضرارَ ، متى رَضِيَت عنهم .

كانت الأصنامُ خَرْساءَ لا تَنطِق ، وصَمَّاء لاتَسْمع ، ومع ذلك كانت توحِي إليهم بكلِّ شر ، وكانت تُفسِدُ عليهم كلَّ شيء في الحياة .

وكانت من القوة بحيث لا يَستَطيعُ أحد أن يَذكرَها بسُوءٍ ، وكانوا يتَصوّرُون أن تَزُولَ الجبالُ ولا تَزول .

وكان للأصنامِ كُهّانٌ يتحدثون عنها ويَدْعُون لها ، ويَأمُرون بلسانها ، ويتحكمون في عبيدِها كما يُرِيدُون .

وأرادَ اللهُ أن يَحمِي البَشَرَ من كَيْدِها وأوهامِها وخُرافاتها ،

فجاء النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلم يُعلِي كلمةَ اللهِ ، ويُعلن حَربَه عليها بطَريقتَين : بالإقناعِ وبالقُوّة .

لقد أوضح لِلمُشرِكين أن الإله المَعبودَ يَجِب أن يكونَ أقوى وأعظمَ ما فى الوُجودِ شأنا ، والأصنامُ لا تَسمعُ نِداء الدّاعين ، ولا تُبصِرُ عِبادةَ العابِدين ، وكانت لا تَمنعُ مَن أرادَها بِسُوء .

ولما قوِيَ أمرُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلم ، وانْتَشرتْ دَعوتُه ، حَطَّم ما بَقِيَ من هَذهِ الأَصنامِ .

كان لقبيلةِ ثَقِيف صَنَمٌ يسمى « اللّات » فلما جاء وَفْدُهم إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم ليَدخُلوا الإسلام ، كان فيما طَلَبُوه منه أن يَترُكَ لهم هذا الصنمَ فلا يَهدِمَه قبل ثلاثِ سَنوات ، فأَبَى النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم .

وعادوا يَسْألونَه سَنَتَيْن ، ثم سنةً واحدةً ، والنبيُّ يَرفُض طَلَبَهم فى كلِّ مرة ، ثم سَألُوه ألّا يُحطِّمُوهُ بأيديهم .

فقال النبيُّ : لكم ذلك ، وسَيقُومُ المُسلمون بتحطيمِ الأَصْنَامِ .

ولما رَجَع هذا الوفدُ إلى أَرْضِهم ، أرسل النبيُّ صلَّى الله عليه وسلم معهم « المُغيرةَ بنَ شُعبةَ » وأبا سُفيانُ لِهَدمِ أصنامِهم .

وعندما وَصلوا مدينةَ « الطّائف » تقدَّم « المُغيرةُ » لِهَدمِها ، قائلا لأبي سُفيان :

أَلَا تُريد أن أُضحِكَكَ من هؤلاء القَوم ؟

فقال : بَلَى .

بَدأ « المغيرةُ بنُ شُعبةَ » يَضرِب صَنَم « اللاتَ » ، ثم تَظاهَر بأنه وَقعَ على الأرض .

فصاح أهلُ « الطائف » وقَالوا : « اللّاتُ » صَرَعت المُغيرةَ وأقبلوا يقولون :

ألم تَعلمْ أنها تُهلِكُ مَن أَساء إليها ؟ فراح « المغيرةُ » يَضحك منهم ، ويقول :

لقد تَظاهرتُ بالوقوعِ على الأرضِ للسُّخْريةِ منها ، وسأُحطِّمُها أمامَكم .

وراح يُحطِّمُها ، والعجائزُ من حَولِه تَبكى ، ثم أخذ « المغيرةُ » مالَها وحُليَّها ، وذَهب بها إلى النبىِّ صلى الله عليه وسلم ، ليَضُمَّ تلك الثروةَ إلى مالِ المسلمين .

وكانت « العزّى » من أعظمِ الأصنامِ عند قُرَيش ، وكانوا

يَزورونَها ، ويَذبَحون الذَّبائح ، وكانت قريش تَطُوفُ بالكَعبةِ ، وتقـول :

« اللات العزَّى ومَناة » .

ولم تَزَل « العُزَّى » صَنَمًا يُعبَدُ ، حتى جاء الرسولُ صلواتُ اللهِ عليه فَحَقَّرها وسَخِر بها ونَهىَ قُريشًا عن عبادتِها ، ونَزَل القـرآنُ الـكريمُ يقول فى اللاتِ والعزَّى وَمناة .

« إنْ هى إلا أسماء سَمَّيتُموها أنتمْ وآباؤُكم ما أَنزل اللهُ بها من سُلطان » .

وإليكم هذه الحكاية التى تَدُلُّ على ما كان لها من تأثيرٍ على قريش :

لما مَرِض سَعيدُ بنُ العاص بن أُمَية مَرضَه الأخير ، دَخل عليه « أبو لهب » يَزورُه ويَسألُه عنه فوَجدَه يَبكى . فقالهأبو لهب :

ماذا يُبكيك يا سَعيد ؟ أمِن المَوتِ تبكى وهـــو أمرٌ لابدَّ منه ؟

قال لا . . . أخاف ألاَّ يَعبُدَ الناسُ « العُزَّى » بَعدِى .

قال أبو لهب :

اطمئن لن نتركَ عِبادتَها بعدك .

فقال سعيدُ بن العاص :

الآن عَلمتُ أن لى خَليفةً يهتمُّ بأمْرِها :

وعندما فَتح النبىُّ صلى الله عليه وسلم مَكةَ دخل المسجدَ والأصنامُ مَنصوبةٌ حَولَ الكعبةِ ، فراح يَطعَنُ عُيونَهَا ووجوهَها بِسَيفِه ، ويقول :

« جَاء الحقُّ وزَهَق[1] الباطلُ ، إن الباطلَ كان زَهُوقا » .

وأمر خالدَ بنَ الوليد أن يحطِّم بعض هذه الأصنام ، فرجع بعد أن حَطم العُزَّى يقول :

لن تُعبَدَ « العُزَّى » بعد اليوم .

هكذَا كان النبىُّ صلَّى الله عليه وسلَّم يُرسل أصحابَه إلى أصنامِ العربِ فيُحَطِّمونها ويُحرِقونها ، وكان بعضُ العربِ يَكسِرُ صَنَمه ويَذهَب إلى النّبي صلَّى الله عليه وسَلّم فيُعْلِنُ إسلامَه .

وهكذا قُضى على الأصنام ، وتخلصَ العربُ من عِبادَتِها ، وتطهرت الأرضُ الطيبةُ من خرافاتها .

---

[1] زهق الباطل : هلك ، زال

وبذلِكَ خَلَت مَعابِدُها من الـكُهّانِ الذين كانوا يَرْكَعُون لها وَيسجُدون .

وانقَطَعت أقدامُ الزائِرين والحجاج الذين كانوا يتقربون إليها ، وَيقِفون أمامَها فى خشوعٍ وذِلة ، وأُطفِئَت من حولِها الشُّمُوع ، وزَال دُخَانُ البخُور ، ولم تَعُدْ ذبائحُ تُذبَح ودماء تُراق ، ورِحَالٌ تُشَدُّ إليها ، فقد ذَهب سُلطانُها ، وضاعت عِزّتُها ، فلا إجْلاَل لها ولا احْترام ، وعرف الناس أنها كانت وَهْما وخُرافة .

لقد كانت مما يُحقِّر الإنسان ، ويَجْلِبُ له العَار ، لأنه كان يَعبد أحْجَارًا لا تَضرُّ ولا تَنْفَعُ ، ولا تَبْصِرُ ، ولا تَسمعُ ، ولا حَولَ لها ولا قُوة .

وبتَحْطيمها تَحرَّرت العُقولُ من سُلطانها ، واتَّجهت النُّفوسُ إلى عِبادَةِ الله الواحِدِ القهّار .

نبيُّ الإسلامِ منقذُ الأرقاء

كان الرِّقُّ مُنتشِرًا في جميعِ أَنحاءِ العَالَمِ ، ولم تَستطِع مَدَنيَّةُ الرُّمانِ ، ولا فَلسَفةُ اليُونانِ ، ولا حِكمَةُ فَارِسَ ، أن تُلغِيَ هذا النِّظامَ الفَاسِدَ الظَّالِم .

كان الإنسانُ الرَّقيقُ ذَليلا ، لا يَأكُلُ مع سَيِّدِه ، ولا يَستطِيعُ أن يَمشِيَ بجانبه أو يَجلِسَ بجوارِه .

كان الرقيقُ مُحتَقَرًا ، ولاقيمةَ له عند سَيِّده ، إن شَتَم حُرا قُطِعَ لِسانُه ، أو أُدخِلَ في فَمِه خِنجَرٌ مُحَمًّى ، وإن سَرَق سَيِّدَه أَحرَقَهُ ، وكثيرا ما كان ما يَجلِدُه ، أو يَكوِيه بِالنار ، أو يُعَلِّقُه بالطَّاحونةَ لِيُدِيرِها ، لِأقَلِّ الأخطاءِ والأسباب .

وكان الرَّقيقُ لا يَستطيعُ أن يَتزَوَّجَ من الأَحرار ، وكانت الحُرَّةُ التى تَتزوجُ عَبدا تُستَعبَدُ ، وكذلك الحرُّ إذا تزوج عَبدةً يُعامَلُ وَلَدُه منها مُعامَلةَ العَبيد .

وكانت شهادةُ العبيدِ لا تُسمَع ، وكان لا يؤخَذُ رأيُه في وَضعِ قانونٍ أو نِظام ، ولا حَقَّ له أن يَتكلَّمَ في أىِّ مَوضوعٍ يَهُمُّ الأحرار .

وكان اليُونانيُّون والرُّمانيُّون فيما مَضَى يَعُدُّون الأُمَمَ المَغلوبةَ عَبيدا ، وكان بَعضُ شعوبِ القُوقازِ قديما يَتخطَّفُون النِّساءَ والأطفالَ لِيُباعُوا فى سُوقِ الرَّقيق .

وفيما يلى صُورٌ من مُعامَلةِ العَبيد ، وكيف استَطاع المسلمون إنقاذَهم مِمَّا هم فيه من بَلاَء .

كان بِلالُ بن رَباحٍ عبدا لأمَيةَ بن خَلَفَ ، آمن بمحمدٍ — صلى الله عليه وسلم — وجاهر بإسلامِه فكانَ أحد سبعةٍ أظهروا إسلامَهم فى فجرِ الدعوة . . رسُول الله — صلى الله عليه وسلم — وأبو بكر ، وعمار بن ياسر ، وأمُّه سمية ، وصُهَيب ، وبلال ، والمقداد .

وعزَّ على أمية بن خَلَف أن يُسلِمَ عَبدُه ، وأن يَخرُجَ عن دينِه ، وتكونَ له إرادةٌ حرةٌ فِيما يعتقِد ، فأمره أن يُعلِنَ كُفرَه بمحمدٍ ، ولكنَّ بِلاَلاً كان قد ذاق حلاوَةَ الإيمانِ ولذةَ الحريةِ فيما يَدِينُ به ، فأصرَّ عَلَى إسلامِه ، وَوقف يَتحدَّى سَيدَه . .

وأمر أميةُ بأن يُؤخذَ بلالٌ ظُهرَ كلِّ يومٍ ، فيطرحَ عَاريا وتوضع على بطنِه الصخرةُ العظيمةُ ، ثم تَهوِى عليه السِّياط ، ومع ذلك كان يَهتِف : أحدٌ أحدٌ . .

وَيمرُّ به أُميةَ وهو على هذهِ الحالِ فيقول له شامتاً مُتوعداً :

— لاتزال هكذا ياعَبدَ السوءِ حتى تموتَ أو تكفرَ بمحمدٍ .

ويمر به « ورقةُ بنُ نوفلٍ » وهو فى هذا العَذابِ فيقولُ لِأُميةَ :

— أقسِمُ يا أُميةَ لو أن عَبدكَ بلالا هـذا مات ، وهو يُعذَّبُ من أجلِ ما يُؤْمِنُ به ، لأجْعَلَنَّ له قبرا كَقُبورِ الشهداءِ والقِدِّيسين !

وهذه « سُميةُ » تتعرضُ هى وزوجُها ياسرٌ وابنُها عمارٌ لِأَشدِّ ألوان العذاب ، ويمرُّ بهم أبو جهلٍ مَغيظا مُحْنَقا فيطعنُها فى موضعِ العِفةَ برُمْحِهِ حتى تموت !

ولهذا وضَعَ أثْرِيَاءُ المسلمين خطةً لإنقاذِ حَياةِ مَن أسْلَمَ من العَبيدِ ، بِشِرائهم من سَادَتِهِم بأغْلَى الأثْمَان .

وكان أولهم وأكثرهم سخاءً أبو بكر الصديق ، فقد ذهب إلى أُميةَ بن خَلف يَعرِضُ عليه أن يَشترى بِلالا ، وكان أمية قد فَشِلَ فى فى حَملِهِ على الكفر بعد الإيمان .

وطلب أُميةُ من أبى بكر خَمْسَ أوقياتٍ من الذَّهبِ ثَمَناً لِبلال ، ولم يُساوِمْ أبو بكرٍ ، فدفع إليه الثمن .

قال أمية : يا أبا بكرٍ ، لو أَبَيْتَ إلا أُوقيةً لبِعناكَ !

فأجابه أبو بكر وهو يَحلُّ وِثاقَ بلال . لو أَبَيْتُم إلا مائةَ أوقيةٍ لأخذتُه ! .

وأعتَقَ أبو بكر بلالاً وردَّ إليه حُرِّيتَه ، ثم اشترى وأعتَقَ غَيْرَهُ مِنَ العَبيد . .

وكذلك فعلَ غيرُه مِن أثرياء المسلمين . . إنهم لَيَتَسابقونَ في تَحْريرِ الرَّقيقِ ، يحررُ أبو بكرٍ ستاً من الجوارِي والعبيد ، ويحرِّرُ عبدالرحمن بن عَوفٍ ثلاثين . . وهكذا حتى استردَّ كثيرٌ من الأرِقَّاء والبَغَايا حُرِّيتَهم وكَرامَتَهُم في ظلِّ هذا الدِّينِ الجديد .

لقد أَوْصَى نَبِينَا الكريمُ أن نُحْسِنَ إلى الأرِقَّاء[1] ، فهم إخوانٌ لنا في الدِّين ، وأَمَرَنا أن نُحسِنَ مُعامَلَتَهم ، فَنُطْعِمَهم مِمَّا نَأْكل ، ونُلبِسَهم مما نَلْبَس ، ولا نُكلِّفَهم فوْق قُدْرَتِهِم .

وأباح الإسلامُ للرَّقيق أن يَشْتَرِيَ نَفْسَه من مَالِكه بمالٍ يَدفَعُه له .

وحَكَم النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلّم على من عَذَّب مَملوكَه[2] أو خَصاه أن يَعتِقَه أي يَمْنَحه حُريتَه ، وجَعل عِتقَه كفَّارةً لِعَمَلِه ، أي يُكَفِّرُ

---

(١) الأرقاء = العبيد . (٢) مملوكه : رقيق يملكه = عبده .

عن هذا الخطأ بأن يجعَلَه حرًّا .

ومن الوسائلِ التى اتّبعها الإسلامُ ونبيُّه الكريم فى عدمِ نشر الرّق أن جعل كفّارة كلّ من قتل خطأ ، أو امتنعَ عن الصّيامِ عمْدا ، أو حنثَ فى يمينه أن يعتِقَ رَقبَةً[١] - أى يحررُ إنسانًا بشرائِه مِن مَالكِه ، أو يطلق سَراحَهُ إن كان مملوكًا أو عَبدا له ، وأن الجارية التى تَلِدُ لسيّدها مَولودا تصيرُ حُرَّةً بعد مَوتِه ، ولا يجوز لسيِّدها أن يَبيعَها فى حياتِه .

جَاء رجُلٌ يقولُ للنبيّ صَلَّى اللهُ عليه وسلم : دُلَّنِى على عَمَلٍ يقرّبنى من الجنّةِ ويُبعِدُنى من النار ، فقال النبى :

فَكٌّ رقبة[٢] .

وقال أيضاً يُعلِّم الناسَ مُخاطبةَ الرّقيق :

« لا يَقُلْ أحَدُكم عبدِى .. أَمَتِى ، وَليَقلْ فتَاىَ وفتَاتِى » .

وجَعل الإسلام ونبيّه الكريمُ من أموال الزّكاةِ إعَانةَ المَملوكِ الذى كاتَبَه سَيِّدُهُ على دَفعِ مالٍ مُقابل تحريره مِن العُبُودِيةِ .

---

(١) عتق رقبة = تحريرها .

(٢) فك رقبة = تحريرها .

نبيُّ الاسلامِ مُحرِّرُ المرأة

كان تَقديرُ الرَجلِ للمرأةِ في الجاهليةِ تقديرا محصوراً في أوضاعٍ خاصةٍ، تتّصِلُ كلُّها بالتّقاليدِ والعاطِفةِ والنّعراتِ القَبَليةِ، كانوا ينظُرونَ إلى أمّهاتِهم نَظرةَ احترامٍ. كانت المرأةُ كأمٍّ مَوضِعَ إجلالٍ وَطاعةٍ من كُلٍّ بَنِيها.

وَلكنَّ المُجتمَعَ الجاهِليَّ كان خِلواً من نَظرةِ تَقديرٍ شامِلٍ لِلمَرأةِ، في كُلِّ حَيٍّ، وفي كُل قَبيلةٍ، اللّهُمَّ إلّا إذا استَثنَينا هذا الإجْماعَ العامَّ الذي يَخلَعُ على الأُمِّ المُنجِبةِ لِلرِّجالِ ثَوْبا من التَّقديرِ الخاصِّ.

وَفي الوَقتِ نَفسِهِ كانت بَعضُ القبائِلِ تَنظُرُ إلى المَرأةِ نَظرَةَ ضَعفٍ وَاحتِقارٍ، إلى حَدِّ أنّهم مارسُوا عادةَ وَأدِ البناتِ.

وَلم يكُنْ وَأدُ البنَاتِ عامًّا في قَبائِلِ العَربِ، بل كان مُنحصِرا في بَعضِ بَنِي تَميمٍ وقبَائِلَ قَليلةٍ أخرى، إذ ظَهر فيهم لِسبَبٍ طَرأَ عليهم.

كانوا يُؤدُّونَ الإتاوةَ[1] إلى النُّعمانِ مَلِكِ الحِيرَةِ فَمنَعُوها سَنَةً

(١) الاتاوة : الجزية

مِن السِّنين، فجرّد عليهم النعمانُ كتائبَه، وساق أنعامَهم، وسَبى ذراريهم، فَعظُم ذلك على التميميِّين، فوفدُوا عليه يطلُبون أهلَهم وأموالَهم فأَبى النُّعمان فقالوا «أعطِنا النساء» فقال «إنّا نُخيِّرهُنَّ في الذهاب أو البقاء. وأعلَن: أنّ كلّ امرأةٍ إن اختارت أباها رُدَّتْ إليه، وإن اختارتْ صاحبَها تُركَتْ له، فكل واحدةٍ منهن اختارت أباها إلا ابنةَ قيس بنِ عاصمٍ، كانت قد أحبّتْ عمرو بنَ الشمروخ، فاختارت البقاء عنده. فغضِبَ قيسٌ ونذرَ ألا تولدَ له ابنةٌ إلّا قتلَها[1]، وربّما اقتدى به بعضُ أهلِه أو أهلِ قبيلتِه، وكان بعضُ العَربِ لا يُزوّجُ بناتِه، وأشهرُهم ذو الإصبعِ العُدْوانِي، فكانت لَهُ أربعُ بناتٍ منعهُنَّ الزواجَ وهُنَّ يُردنَه. جاء ذلك في حديثٍ طويلٍ ذكرَهُ المُبرِّدُ[2].

وبجانبِ هذهِ العادةِ المَرذولةِ كانت بعضُ القبائلِ تُمارِسُ عادةً مُستهجَنةً وهي حِرمانُ المرأةِ الميراثَ.

وبالجُملةِ فقدْ بقيت المرأةُ العربيةُ في الجاهليةِ بعيدةً كلَّ البُعدِ عَنْ مجالسِ الأدبِ والأُدباءِ والعِلمِ والعُلماءِ وعَنْ مِضمارِ السِّياسةِ، والاشتراكِ في الإدارةِ والحُكمِ، وعَن ميادينِ القِتالِ والجِهادِ إلّا نادِراً.

ولمّا جاء نبيُّ الإسلامِ بدعوتِه ورسالتِه المَجيدةِ تبدَّلَ الحالُ غير

---

(١) و (٢) الكامل للمبرد ص ٢٧٨

الحَالِ . لقد وَجَدت المَرأةُ في هذا النَّبيِّ دِرْعًا حَامِيةً وَسَنَدًا قَوِيًا ، يُدافِعَ عن حُقوقِها ويَحمِي حُرِّياَّتِها ، فَإذا هي تَشترِكُ في الجيوشِ المُجاهِدَةِ ، وإذا هي تَغْشَى مَجالِسَ الأَدبِ والأُدباء ومَواكِبَ الفَنِّ والفَنَّانِينَ ، وإذا برأيِها مَوضِعُ الإجْلالِ والتَّقديرِ عِند الوُلاةِ وَالْحُـكَّامِ والْخُلَفاء .

جاء هذا النبيُّ يقولُ للنَّاسِ : خِيارُكُمْ خِيارُكُمْ لِنسائِـكُمْ

وَجاء يَقولُ :

ما أكْرَمَ النِّساءَ إلا كريمٌ ، ولا أهانَهُنَّ إلا لَئيمٌ .

وجاء يقول :

المرأةُ راعيةٌ في بيتِ زَوْجِهاَ ومَسئولةٌ عن رَعِيَّتِها .

لقد نادى النبي بحق المرأةِ المتزوجَةِ في مُمارَسة حُقُوقِها المدنية ، فلها أن تُدِيرَ بِنفسِها شُئونَها ومُمتَلكاتها مُستَقلةً عن زوجها ، متى أرادت .

وَأَجاز لها النَّبيُّ الاشْتِغالَ بِالتِّجارةِ والصِّناعةِ ، وَلَيْسَ مِن حَقِّ الزَّوْجِ مَنْعُها مِن ذلك ، خُصوصا إذا كان الغَرضُ مُساعَدَتَه . وقد كانت تَختارُ من الصِّناعاتِ النَّسجَ والتَّطريزَ ، وَمن التِّجارة السِّلَعَ الخاصة بالنساء .

كَانَتْ « أسماءُ بِنتَ مخربة » تَبيعُ العُطورَ ، وكَانَ بالمدينة امْرأةٌ عَطّارةٌ تُسَمّى « حَوْلَاءُ بِنْتَ تُوَيْبٍ » .

وكذلك باشَرت السَّيِّداتُ المُتَقدِّماتُ فى السِّنِّ التِّجارةَ فى مُختلفِ السِّلَعِ ، فقد تَقدَّمت « فيلةُ الأَنمارية » إلى النَّبىِّ صَلّى اللهُ عليه وسلَّم، تَستَفتِيه فى أنَّها تُساوِمُ فى الشِّراء حتى تَصِلَ إلى الثَّمنِ الذى حدَّدَته لِتشْتَرى ، وكذلك فى البَيْعِ ، فَنَهاهَا رَسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، موجِّهاً إيّاها إلى الشِّراء بالثَّمنِ الذى تُرِيدُ الشِّراءَ به والبَيْعِ بالثَّمنِ الذى تُحدِّدُهُ دُونَ مُساوَمَةٍ .

وَوَفَدَتْ أَسماءُ « بِنْتُ يَزِيدَ الأَنصارِيةُ » على النَّبِىِّ صلى الله عليه وسلم وهو بَيْنَ أصحابه ، فقالت :

بِأَبى وأُمّى يا رَسُولَ اللهِ ، أَنا وَافِدَةُ النِّساءِ إِلَيكَ . وَاعْلَمْ — نَفْسِى لَكَ الفِداءُ — أَنه مَا مِن امْرأَةٍ كَانت فى شَرْقٍ أَو غَرْبٍ سَمِعَتْ بِمَخرَجِى هذَا أَوْ لم تَسْمَعْ إِلّا وهى عَلَى مِثْلِ رَأْيِى . . . إن اللهَ بعثكَ إلى الرِّجالِ والنِّساء، فآمَنّا بِكَ واتَّبعْناكَ . وَنحنُ مَعْشَرَ النِّسَاءِ مَحْصُوراتٌ مَقْصُوراتٌ قَواعِدُ بُيُوتِكم، وَحَامِلاتُ أَولادِكم ، وأنكم مَعاشِرَ الرِّجالِ فُضِّلْتُم عَلينا بالجُمَعِ والجماعاتِ وَعِيادةِ المَرضَى وشُهودِ الجَنائزِ والحجِّ بَعد الحَجِّ ، وَأَفْضلُ مِن ذلك الجِهَادُ فى سَبيلِ اللهِ ، وأن الرَّجلَ منكم

إذا خَرَجَ حاجاً أو مُعْتَمِرًا أَو مُرابِطاً حَفِظْنا لكم أَمْوالَكُم وَغزَلْنا لكم أَثْوابَكم ، وَرَبَّينا لكم أَوْلادَكُمْ . . أَفما نُشارِكُكُم فى هذا الْخَيْرِ يارَسولَ الله ؟

فَالْتَفَتَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم بِوجْهِهِ إِلَى أصحابِهِ وقال لهم :

هَل سَمِعْتُم مَقالةَ امْرَأَةٍ أَحْسَنَ سُؤَالاً عَن دِينِها مِن هذا ؟ .

فقالوا :

لا ، يا رَسُولَ اللهِ .

فقال صَلَّى اللهُ عليه وسلم :

انْصَرِفِي يا أسماء ، وَأَعْلِمِي مَن وَراءَكِ من النِّساء : أَنَّ حُسْنَ تَبَعُّلِ[1] إحْداكُنَّ لِزَوْجِها ، وَطَلَبِها لِمَرضاتِهِ ، وَاتِّباعَها لِمُوافَقَتِه ، يَعدِلُ كُلَّ ما ذَكَرْتِ .

فَانْصَرَفَتْ أسماء وهى تُهَلِّلُ وتُكَبِّرُ اسْتِبْشاراً .

وقد عَزَّ على نِساءِ العَرَبِ أن يَمْنَحَ النَّبِيُّ الرِّجالَ وَحْدَهم كُلَّ وَقْتِه فَسَأَلْنَهُ أن يَخْتَصَّهن بِيَوْمٍ ، فَأَجابَهُنَّ إلى طَلَبِهن ، وَحَدَّدَ يَوْماً لَهن ، يَجلِسُ إليهنَّ ، يَهْدِى الحائرةَ ويُجيبُ السَّائلةَ .

واسْتَأْذَنَ عليه عُمَرُ بْنُ الْخطّابِ وَهُنَّ بين يَدَيْهِ ، فَابْتَدَرْنَ

---

(١) تبعل : ملاعبة ومداعبة ورعاية

الْحِجَابَ ، فَلَمَّا دَخلَ عُمَرُ ، تَبَسَّمَ الرَّسُولُ صَلَّى اللهُ عليه وسلم . فقال عمر :

بأبي وأمّي أنتَ يارَسُولَ ما يُضْحِكُكَ ، فقال رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: رآكَ النِّساءُ فابْتَدَرْنَ[1] الْحِجَابَ . فالْتَفَتَ عُمَرُ إِلَيْهِنَّ وقال:

يا عَدُوَّاتِ أنفُسِهِنّ ، تَهَبْنَنِي وَلَا تَهَبْنَ رَسُولَ اللهِ ؟

وَقُلْنَ : أَنْتَ أَغْلَظُ مِن رَسُولُ اللهِ[2] .

وَلَمَّا أَرادَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم الْخُروجَ إِلَى غَزْوَةِ خَيْبَر ، تَقَدَّمت إليه السَّيدةُ « أمُّ سِنَانِ الأَسْلَمِيةُ » وقالت :

يا رَسُولَ اللهِ ، أَخْرُجُ مَعكَ أُداوِى المَرِيضَ وَالْجَرِيحَ إِنْ كَانت به جِراحٌ .

فقال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم :

اُخْرُجِي عَلَى بَرَكَةِ اللهِ ، فَإِنَّ لكِ صَوَاحِبَ قد كَلَّمْنَنِي وَأَذِنتُ لهن من قَومِكِ وَمِن غيرِهِم .

* * *

أَمَّا حَيَاتُه صَلّى اللهُ عليه وسلم فى بَيْتِه وَبينَ نِسَائه ، فقد كانت المَثَلَ الأعْلَى فى المودَّة وَالْوَدَاعَةِ ، وَتَرْكِ الكُلْفَةِ ، وَبَذل المَعونَةِ ، وَاجْتِنابِ هُجْرِ الْكلامِ وَمُرِّه .

وَسُئِلت عائِشةُ : ماذا كان عَمَلُ النبيِّ صَلّى اللهُ عليه وسلم فى بَيْتِه ؟

---

(١) ابتدرن الحجاب : أسرعن إلى الستر (٢) القسطلانى ج ٥ — ٥ .

فقالت : كان فى مِهْنةِ أَهْلِه حَتَّى يَخْرُجَ إلى الصَّلَاةِ ، تُرِيدُ بذلك أنه كان يُعَاوِنُهنَّ وَيَعملُ مَعَهن .

وكان مِن التَّبَسُّط وَرَفعِ الكُلفةِ إِلَى حَدٍّ أَن يَستبِقَ هو وَامْرأَتُه .

وكانت فَاطِمَةُ بِنتُ رَسُولِ اللهِ تَتَولَّى الطَّحْنَ وَالْعجنَ عَلَى حِينِ كان عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عنه يَنْزِعُ الماءَ وَيَحْتَمِلُه وَيُهَيِّئُه .

وَقَدْ اعْترف الُمستشرِقُ الفَرنسِيُّ « أَندرِيه سُرفيه » بِفَضْلِ هَذَا الرَّسُولِ فى كِتَابِهِ « الإِسْلَامُ وَنَفْسِيةُ الُمسْلِمِينَ » فقال :

لا يَتحَدَّثُ هَذَا النَّبِيُّ عَنْ الْمرْأَةِ إِلَّا فى لُطفٍ وَأَدَبٍ . . . كان يَجْتهِدُ دائمًا فى تَحسِينِ حَالِهَا وَرَفعِ مُستَوى حَيَاتِهَا . . . لقد كَانَ النِّسَاءُ قَبلَه لَا يَرِثْن ، بل كُنَّ مَتَاعًا يُوَرَّثُ لِأَقْربِ الرِّجَالِ ، وَكَأنهن مَالٌ أَوْ رَقِيقٌ . وَعِندَمَا جاء الرَّسُولُ قَلبَ هَـذِهِ الْأَوْضَاعَ ، فَحرَّرَ الَمرأَةَ وأَعطاها حَقَّ الإِرْثِ » ، ثم خَتم كَلِمتَه قائلا :

« لقد حَرَّرَ مُحمدٌ الْمرْأَةَ الْعَرَبِيَّةَ ، ومَن أَراد التَّحقيقَ بِعنَايَةِ هذا النَّبِيِّ بالمرأةِ ، فلْيَقْرأْ خُطْبَتَه فى مَكَّةَ التى أَوْصَى فيها بِالنِّساء خَيْرًا وَلْيقرأْ أَحادِيثَه الُمتبَاينة » .

مَا أَصْدَقَ هَذَا الْقولَ ... وَمَا أَكْثرَ دِفَاعَ النبيِّ عَنْ الْمرأَةِ وَحُقُوقِهَا .

أَلَمْ يَقُلْ فى خُطبتِه التى أَلقاها فى حجة الْوَداعِ ؟ :

« إنَّ لِنسائِكم عليكم حَقًّا وإن لكم عَلَيهن حَقًّا ، لَكُم عَلَيهنَّ أَلَّا يَقْرُبَ فرشَكم غيْرُكُمْ ، وَلا يُدْخِلنَ أَحداً تَكْرَهُونَه بيُوتَكم إلَّا بإذنِكم ، وَلا يَأْتِينَ بِفاحشةٍ ، فإنْ فعلْنَ فإنَّ الله قد أَذِن لكم أن تهْجُرُوهُنَّ فى المضاجِعِ ، وتَضْرِبُوهُنَّ ضَرْباً غيْرَ مُبَرِّحٍ ، فإنْ انتَهَيْنَ وَأَطَعْنَكم فعَلَيكم رِزْقُهُنَّ وكِسوتُهن بالمعروفِ ، وإنما النِّساءُ عِندكم عَوانٍ لا يَمْلِكْنَ لأَنْفُسِهِنَّ شَيْئًا ، أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانةِ اللهِ وَاسْتَحْلَلْتُم فُرُوجَهُنَّ بِكَلمةِ اللهِ ، فاتقُوا اللهَ فِى النِّساء وَاسْتَوْصُوا بِهِنَّ خَيْرًا .

أليس هو القائلَ أيضاً ؟

« يا بُنَىَّ إذا دَخلْتَ عَلَى أَهلِكَ فسَلِّمْ ، ولْيَكُن سَلامُكَ بَرَكةً عليكَ وَعَلَى أَهْلِكَ » .

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ « إنى لأَتزَيَّنُ لِامْرَأَتِى كما أُحِبُّ أَن تتزَيَّنَ لى » .

وَعَنِ عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها ، أَنَّ فتَاةً قالت لِلنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم : إن أَبِى زَوَّجنِي مِن ابْنِ أَخيه يَرفعُ بى خَسيستَه وأَنا كارِهةٌ ، فأرسل النبىُّ إلى أَبيها فجَعَلَ الأمْرَ إليها ؛ فقالت يارَسُولَ اللهِ إنِّي قدْ أَجزْتُ ما صَنَعَ أَبى ، وَلَكِنْ أَرَدْتُ أن أُعلِمَ النِّساءَ أَنَّ ليس لِلآباءِ مِن الأمرِ شىءٌ .

وَمِن أَعجبِ الْمُصادَفاتِ أن يَجتمِعَ الْمُؤْتمِرُون فى أوربا فى زَمَنِ النَّبىّ فى سنة ٥٨٦ ميلادية لِبَحث : هَلِ المَرْأَةُ إنسانٌ ؟ وَبعد بَحثٍ وَمُنَاقَشة وجَدلٍ ، قَرَّرُوا أنها إنسانٌ ولـكن خُلِقت لِخِدْمةِ الرَّجلِ وَحدَه ... ولم يَـكَدْ يَصْدُرُ هذا القَرارُ الجائرُ فى أوربا حتى نَقَضَه مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم فى بلادِ العَربِ إذ رَفَعَ صَوْتَه قائلا :

(إنما النِّساء شَقائِقُ الرِّجالِ) .

بل قال لِلرِّجالِ :

أَلَسْتُم حَرِيصِينَ عَلَى دُخولِ الْجَنَّةِ ؟ هَذِهِ الجنةُ التى تَحرِصُون عليها هى تحت أَقدامِ الأُمَّهاتِ ، وكُلُّ امْرَأَةٍ أُمٌّ .

وبذلك عَلَّمَ الْعَالَمَ أجمعَ أن الْمَرْأَةَ إنسانٌ مُهذَّبٌ ، له من الْحُقوقِ ما لِلرِّجالِ من حُقوقٍ فى وقتٍ كانت أوربة تَنظُرُ إلى الْمَرأَةِ نَظْرَةَ سُخرِيَّةٍ وَاحتِقارٍ .

وَفِى القَرنِ السَّابعِ الميلادىّ عُقِدَ مُؤْتمرٌ عامٌ فى رُوما بَحَث فيه المجْتَمِعون شُئونَ المَرْأةِ ، فَقرَّرَ الْمُؤْتمرُ أنها كائنٌ لا نَفْسَ له ... وَعَلَى هذا فَلَيس لها الحقُّ فى أَنْ تَرِثَ الْحَيَاةَ الآخِرَةَ .

وَوَصَفَها هذا المؤْتمرُ أيضاً بِأَنها رِجْسٌ كَبيرٌ ، وَفَرَضَ عليها أَلَّا تأكُلَ اللَّحمَ وَأَلا تَضحَكَ وألا تتكلمَ ... وَنادَى بَعضُهم بِوَضعِ أقفالٍ على فَمِها .

وفى هَذا الوَقتِ كانت المَرْأَةُ العربية تأخذُ طَرِيقها نَحو النُّورِ وَتحتلُّ مَكانَتهَا الرَّفِيعةَ فى المُجْتمعِ العربيِّ ، وَتقِفُ بجانبِ الرِّجالِ فى مُعتَرَكِ القِتَالِ .

لقد قالت الربيعُ بِنْتُ مُعَوِّذ :

« كُنا نَغْزُو مع رَسُولِ اللهِ وَنسقِى القَوْمَ وَنخدُمُهم ، وَنرُدُّ القَتْلَى وَالجَرْحَى إلى المَدينةِ » .

وعن أمّ عَطِيةَ الأنصاريةِ قالت :

« غَزَوْتُ مع رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم سَبْعَ غَزواتٍ أَخلفُهم فى رِحَالِهم ، وأَصنعُ لهم الطَّعَامَ ، وأُداوِى الجَرْحَى » .

فَمَنْ بَعْدَ هذا كُلِّه يُكابرُ ولا يَعترِفُ لهـذَا النَّبيِّ العَظِيمِ بأنه أولُ مَن نادَى بِتَحْرِيرِ المَرأةِ ؟

ومَن بَعْدَ هذَا كُلِّه لا يَعُدُّ هذَا النَّبيَّ الكَريمَ مُنقِذَ المَرأةِ من الذُّلِّ والطُّغيَانِ والعُبوديةِ ؟

أَلَا يَحِقُّ بعد هذَا كُلِّه أن يَصِفَ «أندريه سرفيه» نَبِيَّنَا الكَريمَ بأنه مُحرِّرُ المرأةِ ومُنقِذُها ؟

أَلَا يَحِقُّ بَعْدَ هذَا كُلِّه أن يَصِفَه بأنه نَصيرُ المرأةِ !

أَلَا يَحِقُّ بَعْدَ هذَا كُلِّه لمسيو « ريفيل » أن يَقولَ بِدَوْرِهِ ؟

« إننا لَوْ رَجَعنا إلى زَمنِ هذَا النَّبِيِّ لَمَا وجَدنا عَملا أفادَ النِّسَاء أكثرَ مِمَّا فَعَلَه هذَا الرَّسولُ ، فَالنِّسَاءُ مَدِينَاتٌ لِنَبيِّهِن بِأُمورٍ كَثيرةٍ رَفعَت مَكانتهُن بيْن الناسِ » .

وَهذَا أيضاً هُو مَادفع العَالمَ الألمانِيْ « دريسمان » أن يُسَجِّلَ قوله :

« لَقَدْ كانت دَعْوةُ مُحمدٍ إلى تحريرِ المَرْأَةَ السَّبب فى نُهوضِ العَربِ وَقيَامِ مَدَنِيَّتِهِم . . وعِندمَا عاد أتبَاعُه وَسَلبُوا المَرْأَةَ حُقوقهَا وَحُرِّيَّتهَا كان ذلك مِن عَوامِل ضَعفهمْ واضمِحْلالِ قُوَّتهم .

وقد كَتَبت جَرِيدَةُ المُونيتور[1] الفَرنسيةُ تُصوِّرُ احْتِرَامَ الإسْلام وَنَبيِّه لِلْمَرأةِ فتقولُ :

« لقد أحدث الإسلامُ وَنبيُّه تغييراً شَامِلاً فى حَياةِ المرأةِ فى المجتَمعِ الإسلامىِّ . . . فَمنَحهَا حُقوقاً وَاسِعَةً تفوقُ فى جَوْهَرِها الحُقوقَ التى مَنَحْنَاهَا المرأةَ الفَرنسِيةَ »[1] .

---

(١) هذا الحديث من مائة سنة فقط .

نبيُّ الإسلامِ المعلمُ الأول

لم يَسبق الإسلامَ دِينٌ شَجَّع العِلمَ ، وأشاد بفَضلِ العلماء كما فعل الدِّينُ الإسلاميُّ ، ويَكفِي دليلاً على ذلك أنَّ أولَ ما نَزل من القرآنِ على النبيِّ صلى الله عليه وسلم هو قولُ اللهِ تعالى :

« اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ، خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَق ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ[1] » .

وفى بِدايةِ الدَّعوةِ إلى الإسْلامِ بَدأَ النبيُّ يَلتقِي سِرًّا بمَن آمَنوا به فى بَيتِ الأرقم ابنْ أبِي الأرقم ، يُعلِّمهم ما نَزَل من كتابِ اللهِ العزيز ، فكان المعلمَ الأولَ ، وكان بيتُ الأرقِم مدرسةً للمُؤْمِنين الأوائلِ .

وَعِندما أعلنَ دعوتَه للإسلامِ جَهرا أمامَ كلِّ الناس ، بَدأت تَنتقِلُ إلى كلِّ مَكان ، فكان يُعلِّمُهم فى المَسجدِ والحجِّ والطريقِ وفى كلِّ لقاء ، يشرحُ آياتِ ربِّه ، ويوضِّحُ أحكامَه وتعاليمَه لِيُنيرَ لهم الطَّريقَ ، طريقَ الدُّنيا والآخِرة .

وتمضِي الأيامُ والأعوام ، واللهُ يُنزِّلُ آياتِه ، ويجمعُ النبي المعلمُ قومَه ويَتلو عليهم ما أنزله اللهُ من القـــــرآن ، فيَحفظونَه ويَعملون به .

ويُقبِلُ الناسُ على هذا النبيِّ المُعلِّمِ ليَتَعلّموا على يَديْه ، وهم مُشتاقون إلى الجُلوسِ أمامَه والتَّحدثِ معه ، إذْ كانَ سَمحَ الوجهِ ، فصيحَ اللسان ، حُلوَ الحديث ، حَسَنَ المُعامَلة ، عليه المهابةُ والوَقار ، وهذا مِمَّا جعَل له شخصية المعلم النَّاجِح المحبوبِ الذى يَجذِبُ إليه القلوبَ والأسماعَ جميعا .

وفى خُطْبة من خُطبِ النبيِّ المعلِم لَامَ قَبِيلَةَ الأشْعريِّين « وهم مَن العُلَماءِ والفُقهاءِ وجيرانُهم الأعرابُ غيرُ فُقهاء بأمورِ دينِهم ، وأمَرَ العُلماءَ والفُقهاءَ أن يُعَلِّموا ، وأمَرَ الأعْـرابَ أن يَتَعلّموا ويَتَفقّهوا .

ولما عَـلِم « الأشعريون » بذلك قالوا :

أَمْهِلنا سنةً يارسولَ الله ، فأمهَلهم سنةً لِيُفقِّهُوهم ويَعلموهم .

من هذهِ القصةِ تَرَى أن النبيَّ المعلمَ لم يُقِرّ قوما جُهلاءَ بجانب قومٍ مُتَعلِّمين فقهاءَ ، وَاعْتَبَر بقاءَ الجاهلِين على جَهْلِهم ، وامتناعَ

المتَعلِّمين عن تعليمهم عِصيانا لأوامرِ اللهِ وشريعته ، وأعلَن العُقوبةَ على الفريقَيْن حتّى يُسرِعوا إلى التّعليم والتّعلّم ، وأعطَاهم مُهلةَ عام للقضاء على آثارِ الجهل والأميّةَ المُنتَشِرة بينَ الكثيرين منهم .

وإن كانت هــذه الحادثةُ حدثت بِشأن الأَسْرَيين العُلماء وجيرانِهم الجهلاء ، فإن النبيَّ المعلمَ أعْلن ذلك المَبْدأ بصفة عامة ، وبذلك وَضَعَ النبيُّ أولَ نظامٍ لمكافحةِ الأُمّيّةِ قبل أن تفكرَ فيه الدولُ المُتقدّمة .

وَقد دَعاَ الرّسُولُ الكَريمُ إلَى التّعليمِ فقَال : طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسلِمٍ .

وَقالَ : « مَن أَرَادَ الدُّنياَ فَعلَيهِ بِالْعِلْمِ ، وَمَن أَرَادَ الْآخِرَةَ فَعلَيهِ بِالعِلْمِ ، وَمَن أَرَادَهُمَا مَعاً فَعلَيهِ بِالعِلْمِ » :

ولأهميةِ العِلم فى الحياة دَعاَ النبيُّ المعلمُ إلى المَزيدِ من العِلم ، وكان دائماً يُرَدِّدُ قَوْلَ اللهِ تعالى :

« ومَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إلاّ قَلِيلاً[1] » .

« وقُلْ رَبِّ زِدْنِى عِلْماً[2] » .

---

(١) الإسراء : ٨٥ . (٢) طه : ١١٤

« وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ[1] » .

وكان عليه الصَّلاة والسلام عَلِيماً بِالنُّفُوس ، خَبِيراً بأحْوالِها ، يَتدرَّجُ فى هِدَايتِها و تعليمها وإرْشَادِها حتى تَقتنِعَ بما يَقُول :

وكان يُعلِّمُ الناسَ مُسْترشداً بقول الله تعالى « أُدعُ إلى سبيلِ ربِّك بالحِكمةِ والمَوعظةِ الْحَسَنة » .

وكانَ فى تَرْبِيتِه لأولادِه ، وَتعهُّدِه لأُسرتِه ، وتنشِئَتِه لِلأُمَّةِ الإسلاميةِ خَيْرَ مِثَال وقُدْوةٍ ، فقـد كانَ عَطُوفاً على الأطفال ، يُلاعِبُهم و يُداعِبُهم ، وَيَدْعُو إلى الْحُنُوِّ عليهم والتلطُّفِ معهم .

رُوِىَ أَنَّهُ كانَ يُصلِّى بالنّاسِ ، فجاءَ حَفِيدُه الْحسَيْن ورَكِبَ عُنُقَهُ وهُوَ ساجِدٌ ، فَأَطَالَ السُّجُودَ حتَّى ظَنُّوا أنَّهُ قدْ حَصَلَ أمرٌ ، فلمَّا قضَى صلاَتَهُ قالوا قَدْ أَطَلْتَ السُّجُودَ يارَسُولَ اللهِ حتَّى ظَنَنَّا أنْ قدْ حَدَثَ أمْرٌ ، فقال : إنْ حَفِيدى قَدِ ارْتَحَلنى ، فَكَرِهْتُ أَنْ أُعْجِلَهُ حتى يَقْضِىَ حاجَتَهُ . ورَأَى أحدُ الصَّحابةِ رسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسـلم وَهُوَ يُقَبِّلُ الحَسَنَ فقال : إنَّ لِى عَشَرَةَ أَوْلادٍ ما قَبَّلْتُ واحِـدًا منْهُمْ — فقالَ عليْهِ الصّلاَةُ والسَّلاَمُ إنَّ مَنْ لايَرْحَمُ لايُرْحَمُ .

---

(١) يوسف ٧٦ .

نبىُّ الاسلام كطبيب

إذا كان الغذاء هو الأساسَ فى بناء الجسم وتجديد نشاطه وقواه ، فهو — فى الوقت نفسه — من أسباب ضعفه ومرضه ، وليس فى جسم الإنسان ما هو أضرُّ به من إدخال الطعام على الطعام وازدحام المعدة به . فإن الداء أكثرُ ما تراه يكون من الطعام أو الشراب .

فالشبعُ الزائدُ داعيةٌ إلى التخمة[١] ، والتخمة داعيةٌ إلى المرض ، والمرضُ داعٍ إلى الموت .

والإفراطُ فى تناول الطعام يؤدى إلى سِمَن زائد ، يعوق الحركة ، ويُثقل البدن ، فيستولى عليه الكسلُ ، فلا ينشط إلى عمل ، ولا يُسرعُ إلى واجب . . هذا عدا ما يتعرض له من أمراضٍ خطرة .

والمعدةُ مع كونها أكثرَ الأعضاء إجهاداً أو قياماً بالعمل ، فهى ضعيفةُ الأجزاء ، رقيقةُ الأنسجة ، فإذا أُجهدت أكثرَ من اللازم ، أو حُمِّلت فوق قدرتها ، أسرع إليها العطب ، وأصابها الضعف والمرض ، ولا خير فى حياةٍ يُنغصها المرض ، ويُكدِّرُ[٢] صفوها الألمُ .

وكثرةُ الطعام والشراب تزيد العبء المُلقى على القلب ، كما تضغطُ المعدة المُمتلئة عليه ، فيزداد إجهاداً وإرهاقاً .

---

(١) التخمة ما يصيب الإنسان من الإفراط فى تناول الطعام .
(٢) يكدر : يعكر .

وقد أجمعَ العُلماءُ الأَطباَّءُ أن خَير وقايةٍ من هَذهِ الأمراضِ هو الاعتدالُ فى الطَّعَامِ ، وقالوا :

« المعدةُ بَيتُ الدَّاء والِحْمية رَأسُ الدَّواء » .

وإذا كان العُلماءُ قد تَوصَّلُوا إلى هذه النتيجةِ العلميةِ فى القَرنِ العِشرين ، فقد سَبَقهم نبيُّنا الكريمُ بِقَوله :

« لا تُمِيتُوا القلب بكثرةِ الطَّعَامِ والشراب ، فإن القَلْبَ كالزَّرعِ يموت إذا كَثُرَ عليه الماء » .

وقال أيضاً : « ما مَلأ ابنُ آدمَ وعاء شَراً من بَطْنِه » .

لقد أرسل المُقَوْقِسُ حاكمُ مِصرَ إلى النبيِّ محمد صلَّى الله عليه وسلَّم بهدايا ثلاث : جارية وفَرَس ، وطبيب ، فقَبِلَ النَّبي الهدِية الأولى والثانية ، وردَّ الثالثة شاكراً قائلا : « نحن قومٌ لا نأكلُ حتى نَجُوع ، وإذا أكلْنَا لا نَشْبَعُ » .

وكان قوله حكمةً خالدةً ، ونصيحةً طبيةً غالية ، تَبقَى ما بَقِيَ الزمن .

والمَضارُّ الكثيرة التى يُسَبِّبها الإفْرَاطُ فى تنَاولِ الطَّعَام هى التى جَعَلَت سيدَنا عمرَ بن الخْطَّاب يقول للناس :

« إياكم والبِطنة[1] فإنها مَكسلة[2] للصلاة ، ومَفسدةٌ للجسم ، ومؤديةٌ إلى السقم ، وعليكم بالقَصدِ فى قُوتِكم ، فهو أبعدُ من السَّرَف وأصحُّ للبَدَنِ ، وأقوى على العِبَادَةِ » .

وكان الرسولُ يُحِبُّ النظامَ وحُسنَ المنظرِ والرائحة الطيبة ، وكان يَكرهُ المَنظرَ القبيحَ والرائحةَ الكريهة والنظامَ السيِّء ، ولهذا قال :

« إنَّ اللهَ طَيِّبٌ يُحِبُّ الطَّيِّبَ ، نَظِيفٌ يُحِبُّ النَّظَافَةَ ، كريمٌ يُحِبُّ الكَرِيمَ ، جَوادٌ يُحِبُّ الجُوادَ[3] ، فَنَظِّفُوا أَفنِيَتكم[4] ، ولا تَشَبَّهُوا بِاليَهُود » .

جَاء رَجُلٌ إِلَى النَّبِيّ مُغْبَرَّ الشَّعرِ ، غَيْرَ مُنْتَظِمِ الرَّأسِ وَاللِّحيَةِ ، فَأَمَرَهُ النَّبِيُّ بِإصلاحِ شَعرِه فَفَعَلَ ، ثُمَّ رَجَعَ ، فَقَالَ النَّبِيُّ :

« أَلَيْسَ هٰذَا خَيْرًا مِنْ أَن يَأتِي أَحَدُكُم ثَائِرَ الرَّأسِ[5] كَأَنَّهُ شَيطَانٌ ؟ » وَرَأَى الرَّسُولُ رَجُلًا عَلَيْهِ ثِيَابٌ قَذِرَةٌ ، فَقَالَ :

« أَمَا كَانَ هذَا يَجِدُ ما يَغسِلُ ثَوْبَهُ » ؟

* * *

---

(١) البطنة : الامتلاء الشديد من الطعام .

(٢) مكسلة : تسبب الكسل وتعدل عن القيام بالصلاة .

(٣) كريم . (٤) فناء الدار : ما امتد من جوانبها .

(٥) ثائر الرأس : شعره غير منتظم .

وفى يوم من الأيام اجتمع بعضُ علمـــاء الغرب فى نَدْوة لهم يَتباحثون ويَتَجادَلُونَ ، وكانَ بينهم عالمٌ من مصر . وطَالَ بهم الجدلُ عن الحَجْرِ الصحِّىِّ .. متى بَدَأ ؟ . . وكيف بدأ ؟

وتَشعبت الأمورُ أمامهم ، وتَبَايَنَتْ وجهاتُ النظر ، فإذا بهـذا العالم المصرى يَضعُ حَدًّا لهذا الجدلِ الخاطِىء بقوله :

إن فضلَ الحَجْرِ الصحيِّ لا يَرجِع إلى أوربا ، فأولُ من فـكَّر فيه هو نبىُّ الإسلام . . محمد صلَّى الله عليه وسلّم .

فصاح الجميعُ فى دَهَشٍ وحَيرة قائلين :

وكيف كان ذلك ؟

فعاد عالمٌ مِصْرى يُوضِّح ويقول :

إن نبى الإسلام هو أولُ مَن قال :

« إذا سَمِعتم بالطّاعُونِ فى أرضٍ فلا تَدخُلوها ، وإذا وَقَعَ بأَرضٍ وأنتم بها فلا تَخرُجوا منها » .

أليس هذا هو أفضل ما وَصَل إليه الحَجرُ الصحِّىُّ الحديث بعد أربعةَ عَشرَ قرناً من الزّمان ؟

فَصاحَ أحد علماء النَّدوة قائلا :

لقد كانَ نَبِيُّكم الـكَريمُ على قَدْرٍ كبيرٍ من العِلْم والخِبْرَةِ .

فعاد عالم مصري آخر في هذه الندوة يقول :

« وكان نبينا الكريم أول من فكر في قانون الحجر الصحي للحيوان أيضا إذ قال :

« لا يوردن ممرض[1] على مصح[2] ، وإن الجرب الرطب قد يكون بالبعير ، فإذا خالط الإبل أو حككها أو آوى إلى مباركها[3] وصل إليها المرض بالماء الذي يسيل منه » .

عندئذ صاح أحد علماء هذه الندوة قائلا :

لو علمت أوربا بهذه الحكم العظيمة ، عندما أصابها الطاعون في وسط القرن الرابع عشر الميلادي ، لقلت الخسائر والضحايا ، إذ قدر عدد الموتى بهذا الطاعون بخمسة وعشرين مليونا من الأنفس .

لقد نقل التتار عدوى الطاعون إلى أوربا ، ومنها حمله البحارة الأوروبيون غربا إلى جيفا في أكتوبر سنة ١٣٤٧ ، ولجهل البحارة وقتئذ بالحجر الصحي فروا هاربين إلى صقلية وإيطاليا ، ونقلوا منها عدوى الطاعون . ومن إيطاليا انتقلت عدوى الطاعون إلى جنوب فرنسا وألمانيا ، فبلغت ضحاياه الملايين .

---

(١) ممرض : ذو عاهة .　　(٢) مصح : سليم .

(٣) مباركها : الأماكن التي تناخ فيها الإبل .

وانتقلَت هذهِ النَّدوةُ العِلْمِيةبعد ذلك إلى مَوضوع تزاوُج الأقارب ومَساَوئه ؛ ومَرّت الساعاتُ وهم يُناقِشُون هذا الموضوع ، وأخيراً التفت إليهم عالم مصريٌّ وقال :

ما جِئتُم بجديدٍ أيضاً .

فقالوا له : كَيف ؟

ما قُلتُموه الآن قاله نبي الإسْلامِ من قَبلِكم ... أليسَ هو القائل « اغترِبُوا ولا تُضْوُوا »[1] .

أي لا تتزاوجُوا بين الأقارِب ، لئلا تَضْوَى[1] أولادُكم . فإن أولادَ الغَريبةِ أنجَب وأقوَى ، وأولاد القريبةِ أضعفُ وأضوى .

---

(١) تضووا : تضعفوا .

نبيُّ الاسلام كرئيس أمة ودولة

قامت أمةُ محمد صلّى اللهُ عليه وسلم، تحكُمُ أمورَها بكتابٍ إلهيٍّ، لا يأتيهِ الباطلُ مِن بينِ يديْهِ ولا مِن خلفِه، يخضعُ لأحكامِه وتعاليمِه الحاكمُ والمحكومُ، والسيِّدُ والعبدُ، والذَّكرُ والأُنثى، والكبيرُ والصَّغير، والعظيمُ والحقير، قامت دولةُ محمدٍ على الحريةِ والإخاءِ والمُساواةِ والأخلاقِ الفاضلة، لا على الحاجاتِ الماديَّةِ والمعيشية فحَسْب.

لهذا السبب جمعت أمَّةُ محمدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلم بينَ أجناسٍ متفرِّقةٍ وشعوبٍ مختلفةٍ فى اللَّونِ واللُّغةِ والعاداتِ والتَّقاليد، لا يربطُها إلا المبادئُ الصَّحيحة والأخلاقُ الكريمةُ .

وقد أشار الله تباركَ وتعالىَ إلى ذلك كلِّه بقولِه :

« يأَيُّهَا النَّاسُ إنَّا خلقْناكُم مِن ذَكَرٍ وأُنْثى، وجعلْناكُم شُعوباً وقبائِلَ لتعارفُوا، إنَّ أكرمَكم عِنْدَ اللهِ أتقاكُم » .

وقال النبيُّ صلّى اللهُ عليه وسَلّم .

« لا فضلَ لعربيٍّ على أعجميٍّ إلاَّ بالتَّقْوى » وقال :

« كلُّكم مِن آدمَ وآدمُ مِن تُرابٍ » .

أَلَمْ يُوَلِّ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسَلم « بِلالاً » على « المدينةِ » وفيها أَكابِرُ القَومِ من الأَنصارِ والمُهاجرين ، وهو عَبدٌ حَبشِيٌّ اشْتَراهُ أَبو بكرٍ وأَعْتَقه ؟

أَلَمْ يَجْعل النبيُّ عليه الصلاةُ والسَّلام « مَهرانَ الفارِسيَّ » وَالِيًا على اليَمنِ وهو فارسيُّ الأَصلِ ، ولما مَات وَلَّى ابْنَه من بَعدِه ؟ وقد جَرَى أَصحابُ النبيُّ وأَتْبَاعُه على هذهِ السُّنَّةِ ، وكان حُكَّامُ الولاياتِ من أَكثرِ الناسِ صَلاحًا وإِخْلاصًا وَعدلا .

كان العَدلُ في مُحمدٍ هو الأَصلُ والأَساسُ ، فالنَّاسُ أَمامَه مُتَساوُون كأَسْنانِ المُشْطِ .

وكان النبيُّ عليه الصلاة يَستمِدُّ سِياستَه من قَولِهِ تعالَي :

« وإِذا حَكَمْتُم بَينَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالعَدْلِ[1] » .

وحث النبيُّ مِرارًا وَتِكْرارًا على العدلِ في الحُكمِ قائلا : « أَشدُّ الناسِ عذابا يَومَ القِيامَةِ مَن أَشْركَهُ اللهُ في سُلطانِه ، فجَارَ[2] في حُكمِه » .

وفي قوله : « ما مِن أَحدٍ يَكونُ على شَيءٍ من أُمورِ هَذهِ

---

(١) سورة النساء

(٢) جار : ظلم

الأمةِ فلم يَعدِلْ فيهم إلا كَبَّهُ[1] اللهُ فى النارِ » .

وكان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلّم والخلفاء الرَّاشِدون مِن بَعْدِه ، مَثَلاً عَالياً فى تحقيقِ العَدلِ ، كانوا يَعدِلون بَين الناسِ حتى مَع أَنْفُسِهم . حَدث أن طَلب رَجلٌ دَيْنَه من الرّسول ، فأَغْلظَ له القَول ، فهَمَّ عُمَرُ ابنُ الخَطَّاب أن يَضرِبَ الرَّجلَ لِغلْظَتِه مع الرّسول ، فقال له صلَّى اللهُ عليه وسَلَّم :

يا عُمرُ ، كنْتُ أَحوجَ إلى أن تَأْمُرَنى بِوَفاء الدَّيْن ، وكان هو أحوجَ إلى أن تأْمُرَه بالصَّبر .

وسَار الخلفاء الرَّاشِدُون على النَّحو الذى سَار عليه النبيُّ صلَّى الله عليه وسلّم ، فكانوا أَيضاً مِثالا حَسَناً لِلحاكِم العادل .

شَكا إلى عُمَر بنِ الخطابِ فتًى من مِصر ، إذ سَبَقَت فَرَسُه فَرَسَ عَمرِو بنِ العاصِ وَالِي مِصر ، فَاغتاظَ فَضرَبه بالسَّوْط ، وقال له :

خُذْها وأَنا ابنُ الأَكْرَمِين .

وذهب المِصرى إلى الخليفةِ لِيَشكُوَ ، فَاسْتدْعَى عُمَرُ بنُ الخَطابِ عَمْرًا وَابنَه مِن مصر ، وأَمر المصرىَّ أن يَضربَ ابنَ عَمرٍو كما ضَرَبَه

(١) كبه الله فى النار : رماه وألقى به به فيها

وأَنَّبَ عَمْرًا ، لأن ابنَه لم يَفْعَلْ مَا فَعل إلا اعْتِمادًا على سُلطةِ أَبِيه. وقال كلمَته التَّارِيخيَّةَ العَظِيمة : « مَتَى اسْتَعْبَدتُم الناسَ وقد وَلَدَتْهم أُمَّهاتُهم أَحرارا » ؟ .

ويُرْوَى عن السيدةِ عَائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها : أن قُريشاً أَرادَت أن يَصفحَ النبيُّ عن المرأةِ المَخْزومِيَّةِ التى سَرَقت فى عَهدِ النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم فقالوا :

لا يَستطِيعُ أن يَشْفَعَ لَهاَ عند النبيِّ فى ذلك إلا أُسَامَةُ بنُ زَيدٍ ، لأنه أحبُّ الناسِ إليه ، فذهبوا إليه ، وطلبُوا منه أن يَشْفَعَ لتلك المرأة .

وما إنْ بَدأَ « أُسَامَةُ » الحديثَ مع النبيِّ حتى تَلَوَّنَ وَجهُ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وَسلَّم ، فقال :

أَتَشْفَعُ فى حَدٍّ من حدود الله ؟ .

فقال له أُسامة : استَغْفِرْ لى يارسولَ الله .

قامَ رسولُ اللهِ صلى عليه وسلم يَخطبُ فى الناسِ فبعدَ أن أَثْنَى على اللهِ قال :

أمَّا بَعْدُ ، فإنما أَهْلَكَ الَّذين مِنْ قَبْلِكُم ، أَنهم كانوا إذا سَرَقَ فيهم الشَّريفُ تَرَكُوه ، وإذا سَرَقَ فيهمُ الضَّعيفُ أَقاموا عليه الْحَدَّ ، وإنى

— وَالَّذى نَفسِي بِيَدِهِ — لَو أَنَّ فَاطمةَ بِنتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَت لَقَطَعْتُ يَدَهَا »[1] .

وكَانَ عليه السَّلامُ مِثالَ الحاكمِ الَّذى يُتابِعُ أَحوالَ أُمَّتِهِ ، فكانَ يُراقِبُ وُلاتَه ، ويُحاسِبُهم على أَموالِ النَّاس .

قالَ عليه السَّلامُ : « مَا مِنْ وَالٍ يلِي شَيْئًا مِنْ أُمُورِ النَّاس إِلَّا أُتِيَ بِهِ يَوْمَ القِيَامَة ، مَغْلُولَةً يَدُه إِلى عُنُقِهِ ، لَا يَفُكُّهَا إِلَّا عَدْلُه » .

وقد مَنَع النبيُّ صلى الله عليه وسلم الحكامَ أن يجعَلُوا من سُلطانِهم ومَنْصِبِهم أداةً لجمع المالِ بِغَير حَق ، فقد رَوَى البُخاريُّ ومُسلِم أن الرسولَ عليه السلام استَخدمَ أَحدَ الوُلاةِ عَلَى صَدقاتِ بَنى سَليم ، فلما جاء إلى النبيُّ صلى الله عليه وسلم وحَاسَبه ، قال : هذا الذى لكم وهَذهِ هَديَّةٌ أُهْدِيَتْ لى .

فقال رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلم : فَهلَّا جَلَسْتَ فى بَيتِ أَبِيك أو بيتِ أُمِّك ، حتى تَأْتِيَكَ هَدِيَّتُك إن كُنْتَ صادقًا ؟ ثم قام فخطب الناس ، ونَهَى عن مثل هذا وتَوَعَّدَ عليه .

وقد نَادَى الإِسلامُ بِالشُّورَى وَاتَّخذَها أَساسًا للحُكم ، إذ قال

---

(١) أخرجه البخارى ومسلم .

سُبحانَه وتَعالَى فى كِتابِه العزيز « وأمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهم » .

وعَن أبى هُرَيْرَة « رَضِى اللهُ عنه » قال :

« لم يَكُنْ أحدٌ أكْثَرَمشورةً لأصحابِهِ من رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلم » .

وعلى هَذا النحوِ من العنايةِ بالشُّورَى مَضَى الخلفاءُ الراشِدون ، لقد استشارَ أبو بكرٍ أصحابَه فِيمَن يَلِى الأمرَ مِن بَعدِه ، وكَانَ يَرجِعُ إليهم فى اختيارِ الوُلاةِ والقُوَّادِ ، وتَسييرِ الْجيوش ، وتَوْزِيعِ الغنائم .

وكذلك فَعَلَ عمرُ بنُ الخطاب ، فلم يَستَقِلَّ دُون أصحابِهِ برأيٍ فى أمورِ الخلافةِ ، فاسْتَشارَهم عِندما طَلَبَ منه عَمرُو بنُ العاصِ الإذنَ بفتحِ مصرَ ، واستَشارَهم فيمن يَقودُ جيوشَ المسلمين فى حربِ فارس ، وأشارُوا باختيارِ سعْدِ بنِ أبى وقَّاصٍ فاختارَه ، كما جَعَلَ الشُّورَى فى نَفَرٍ منَ الصحابةِ لِيختاروا من بَيْنِهم مَن يَكون خَليفةً بعدَهُ .

والعَملُ بالشُّورَى يَحفَظُ حُقوقَ الشَّعبِ ، ويَضْمنُ استِقامةَ حُكَّامِه ، وحُسْنَ سَيْرِ الأُمورِ .

والشُّورى فى الوقتِ نَفْسِه مَظْهَرٌ من مظاهِرِ المُسَاواةِ وحُرِّيَّةِ الرَّأى .

وفَرَضَ الرسول صلى الله عليه وسلم على العَالِمِ أن يُعَلِّمَ الجاهلَ ، وعلى الجاهلِ أن يَتَعَلَّمَ من العَالِمِ .

وفَرَضَ على العَالِمِ ألَّا يَمْنَعَ النَّاسَ عِلْمَه ، وألَّا يَكْتُمَ ماعَرَفَه بَينَ تَعَالِيمِ الدِّينِ وأسْرَارِ الكَوْن ، حتى لا يَنْفَرِدَ بالعِلْمِ وَحْدَه . وقد جاء ذلكَ فى قَوْلِه صلَّى اللهُ عليه وسلم :

« مَن كَتَمَ [1] عِلْماً ألْجَمَهُ اللهُ بِلِجَامٍ من نارٍ يَوْمَ القِيَامة » .

وقال أيضاً : « خَيْرُكُمْ مَن تَعَلَّمَ العِلْمَ وعَلَّمَه » .

وكان النبيُّ الكريمُ دائم الدَّعوةِ إلى نَشْرِ العِلم ، وكان خُلفاؤُه وَأتباعُه مِن بَعْدِه يَسيرون على نَفْسِ الطَّرِيق ، فقامت الحَضارةُ الإسلاميةُ عَلَى أسَاسَيْنِ قَوِيَّيْنِ هُمَا : الإيمانُ والعِلمُ .

وَانْتَشَرَ العِلمُ فى ظِلِّ الإسلامِ ، وأصبحَ هو النورُ الَّذى يُضِيء العالمَ فى القُرونِ الوُسْطَى المُظلِمَة ، وأصبحَ عُلماءُ العربِ أساتِذَةَ العَالَمِ كلِّه فى هَذِهِ الفَترةِ من الزَّمان .

وَبفضلِ العلمِ تَقدَّمت الزِّراعةُ والصِّناعةُ أصْبَحَتْ أُمَّةُ مُحَمدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلم فى تَقَدُّمٍ وَرُقِيٍّ وَرَفَاهيةٍ .

---

(١) كتم : اخفى

وظَلَّ المسلمون يَحترمُون العِلمَ والعُلماء ، حتى اعْترف بَعْضُ مُؤَرِّخِي الغَربِ ، أن مدينة قُرْطُبَة فى الأَنْدَلُسِ — فى فَترةِ ازْدِهارِها — كان فيها ما يَقْرُبُ مِنْ مِليُونَى نَسَمة ، ليس فيهم أُمِّيٌّ واحدٌ .

وهذا دَليلٌ على احْترامِ سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ وأتباعِه لِلعِلمِ والعُلماء ، وكيف اسْتطَاعوا بالإيمانِ والعلمِ أن يُقيموا حَضَــارةً مِن أكْبرِ الحَضاراتِ وأعظمِها .

لقد حَطَّمَ النَّبىُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الأَصْنامَ ، وحَرَّرَ العُقولَ ، ونَشَرَ الإيمانَ ، وأنقَذَ الأَرِقَّاء ، وَعَلَّمَ الجاهل ، وحَرَّرَ المرأة ، وسَوَّى بَين النَّاسِ ، وأقامَ العَدلَ ، وأخذ بالشُّورَى .

أَلَا يَحِقُّ بَعْدَ هذا كلِّه أن نُقَرِّرَ أن هـذا النَّبىَّ الـكَريمَ كان المُصْلِحَ الأَكْبَر ، والمُعَلِّمَ الأَوَّل ، والقائدَ الأَعْظَمَ ، والحاكمَ الأَعْدَل ؟

وهذا هو الذى دَفَعَ « بِرْنَارْد شو » المُفَـكِّرَ والـكاتبَ الإنجليزيَّ الـكبيرَ أن يَقولَ كلِمتَه المَشهورة :

« إِنَّنِى أَعْتقِدُ أن رَجُلًا كَمُحَمَّدٍ لو تَسلَّمَ زِمَامَ حُكْمِ هَذَا العَالَمِ بأَجمعِه اليَوْمَ ، لَتَمَّ النَّجاحُ فى حُكمِه ، وَلَقادَهُ إلى الخَيْرِ ، وحَلَّ مُشكِلَاته عَلَى وَجْهٍ يَضْمَنُ لِلعالَمِ السَّلَامَ والسَّعَادَة » .

للمــؤلف

كتب دينية وأدبيــة

* عظمــة الرســول
* نبى الاســلام فى مرآة الفكر الغربى
* حيــاة محمــد
* فــن القــراءة

لماذا نقرأ ؟ ماذا نقرأ ؟ كيف نقــرأ ؟

* فن الحـــديث
* فن الصـــداقة

يطلب من دار الفكر العربى بالقاهرة
شـــارع جواد حســنى

طبعت بمطابع مؤسسة روز اليوسف